درج الطابونة

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz
*

سمير الجندي
"درج الطابونة"
(قصص قصيرة جدًّا)
*

الطبعة الأولى (2012)

*

التصميم والمونتاج والإخراج
الريشة

*

قصص قصيرة جدًّا

سمير الجندي

درج الطابونة

AL JUNDI
دار الجندي للنشر والتوزيع
PUBLISHING HOUSE

القصص

هي والبحر

بعد قطيعة طويلة مع البحر، التقينا قبيل الغروب. احمرّ خجلاً عندما لامست قدماي رماله الصفراء، وقد بللتها أمواجه التي تتسلل خلسة من عمق السكون.

هل يحاول الاعتذار عن فعلته الشنيعة؟ هل سبق أن اعتذر؟ لا أظن ذلك! لم يكن بيني وبين البحر عداء! ولم أسئ له أبدًا! فلماذا يعاديني؟ أنا حتى لم أحمل بيدي سهمًا، أو شباكًا، أو صنارة صيد لأحصل على بعض أسماكه، بل إنني لا آكل السمك! فلماذا يعاديني هكذا بكل قسوة؟ لماذا؟ لا أجد لأسئلتي إجابات.

سألت البحر. سألت الموج. سألت الأفق البنفسجي الآخذ إلى الاحمرار. سألت القمر الذي يداعب بشعاعه الفضي صفحات الماء. سألت نفسي ومن حولي، فلم أجد من يجيبني، فلماذا ينصب لي العداء؟

أيقنت أن لا مجال لاستمرار حالة العداء، فقررت القيام بخطوة للمصالحة معه. بدلت ملابسي، وارتديت سروال البحر، وعلى الرغم من برودة الماء في هذا الوقت من كانون، فقد قررت السباحة في مياهه، وعندما نزلت الماء رأيت وجه حبيبتي على صفحة الماء يعاتبني قائلاً: "هل نسيت أنه قاتلي"؟

في المطار

مسك الضابط الذي يضع ختم المرور في المطار جواز سفري بيديه. نظر إلى صورتي فيه، ثم نظر إلى وجهي، ثم بدأ يقلب صفحاته الأربعين، ثم نظر إلى صورتي وتفقد وجهي مرة ثانية، وعاد ليقلب الصفحات. صرت نجمًا في المطار، الكل ينظر نحوي. صف المنتظرين يطول، وأنا حائر في أمر نفسي. بعد ذلك أعطى إشارة إلى ضابط آخر، ناوله جوازي، فتنفس المنتظرون الصعداء، فقد تخلصوا من عقبة أخّرتهم عن منتظريهم في قاعة الانتظار. أما جوازي، فقد تنقل بين أيدي الضباط جميعًا، الذكور منهم والإناث، إلى أن قرروا وضع الختم على صفحة كانت تتشوق لألوانه الحمراء. كان الختم خجولاً بالكاد ظهر على الورقة. كانت عيونهم تسير ورائي تتبع كل خطواتي، حتى وصلت إلى ضابط يجلس على كرسي عال

كصمام ينز الناس منه قطرة قطرة. تناول الجواز وقلّبه أكثر من مرة، ثم ذهب بالجواز إلى غرفة زجاجية في طرف القاعة، فرأيت خيالات تلوح من وراء الزجاج وأيد تلوح بالجواز، فتطيح به مرة، وتنشله مرة، والأعناق ترتفع مرة، وتنكسر مرة، وينتهي الحوار، ويأتي الضابط ليسألني: "هل تسكن القدس"؟ قلت: "نعم". فقال: "كيف القدس؟". أجبته: "بخير.. بخير.. بخير..".

ناولني الجواز وفسح لي الطريق، لكنه لا يدري بأنه لم تعد لدي رغبة بالمرور.

(بيروت، 1/ 2/ 2012)

جواز سفر

سألت العجوز وهي تنتظر دورها في مكتب الجوازات في عمان: "مطولين يا بنيي؟"

أجبتها وأنا أنظر إلى رقم الدور على قصاصة صغيرة تقبض عليها بكف يدها: "لا زال أمامك عدد كبير من الناس يا جدتي!"

لم تعبس، ولم تتململ، ولم يظهر على وجهها إلا الوقار وهيبة السنين، وهي تحاول إخفاء أوجاعها.

سألتها بفضول مباح: "إلى أين تسافرين بالجواز يا حاجة؟"

نظرت نحوي وقالت بكل هدوء: "أنا لا أسافر يا بنيي، لكنهم طلبوا مني تجديد الجواز عشان آخذ الدواء بنصف الثمن".

(عمان، 11/ 2/ 2012)

مسافات

بين صنّين والشيخ، سهلٌ عظيم يسمونه هنا في لبنان (البقاع). تحتضن هذا السهل الأخضر جبال تقف كعروس عذراء زفت لآلهة السماء، على رأسها طرحتها البيضاء، وفي الجهة الأخرى تسكن بقايا قلب حيدر الذي يعشق سفحه القاسم، ومن خلفه الجرمق بجرده الأملس البراق، وعلى بعد منه نحو الجنوب هناك المشهد يتربع على عرش المدينة.

الفضاء على اتساعه ضاق. اختنق بحدود رسمتها خيالات القمع والاستبداد. أسلاك، وألغام، ورادارات، تحصي علينا أنفاسنا. تقتل أحلامنا. تدمي مُقلنا. بين الحاجز والحاجز حاجز آخر.

من هنا إلى القدس مسيرة ساعات قصار، لكنني لا أجد طريقي إليها من بين تلك الروابي والتلال، فتطول المسافات. (زحلة، 4/ 2/ 2012)

عتاب

- مرحبًا يا صديقي.

- مرحبًا.

- لماذا لم تعدني في مرضي؟

- رغبت كثيرًا بزيارتك، لكنني كنت قعيد الفراش!

فَقْد

اليوم، بُتر ثديٌ، لن يلثمه طفل بعد!

(الخرطوم، 9/ 7/ 2011)

العُود

أكاد أعرف كل شيء عن آلة العود!

أوتـاره الخمـسة المزدوجـة، وزنـده، وأنفـه العـاجي، وأقـمارِه الدائريـة، وأخشابه، واسم صانعه، لكنني.. لا أعرف العزف عليه!

ذكريات

وقفت أمام الباب. لم أطرقه. تفصلني عنه خطوة. وقفت أنتظر كما كنت أفعل ذاك الزمان.

كنا نسمي تلك الغرفة القابعة أسفل الدرج في بيت القواس، في حوش الشاويش: "الفيلا". كانت غرفة صغيرة كنا نرصّ أجسادنا فيها رصًّا.

دارت السنون برأسي المثقل بالشيب. تذكرت جلساتنا الرباعية، هشام وعدنان وإسحق وأنا، وأحيانًا صلاح وزيدان كانا يأتيان.

كانت شروق، والدة هشام، بل والدتنا جميعًا، تحبنا، وتداعبنا بكلامها المعسول والمعطر بزهر الورد المقدسي. تسألني: "كيف أمك؟" فأقول لها: "بخير يا خالتي". ثم تسترسل قائلة : "أمه، لا يوجد مثيل لها على وجه الأرض، لقد عوضها الله عن فقدان نعمة البصر، فهي امرأة معدلة،

صبورة، بيتها نظيف، وطبخها شهيّ، متعلمة، وخلوقة، وحافظة للقرآن، وأولادها أرتب أولاد".

دمعت عيناي. تركت المكان قاصدًا قبر أمي لأحتضن رائحتها الطيبة.

غِنى

في تشرين، ارتحل غبار الصيف. حلت مكانه لسعة البرد اللطيفة. اشتد اخضرار الزيتون. قارب لونه السواد.

اليوم الجمعة، يوم عطلتي، ويوم زيارة حفيدتي الرائعة (غِنى). هي لم تتجاوز ربيعها الثالث، لكنها متعلقة بي، وأنا متعلق بها. حملت وعاء بلاستيكيًّا، وخرجت إلى حديقة منزلي، لأجد زيتون زيتونتي.

في حديقتي شجرتا زيتون، واحدة حملت الكثير من الثمر، تتزاحم الحبات على فروعها فتجعلها تنحني بتواضع، والأخرى لم تحمل حبة زيتون واحدة، أغصانها شامخة تكاد تلمس السماء، علمًا أن المسافة بينهما لا تتجاوز المتر الواحد. أنا وغِنى، بدأنا بالتقاط حبات الزيتون. هي من الأغصان القريبة من الأرض وأنا من الأغصان المرتفعة.

غِنى كثيرة السؤال. تسألني عن كل شيء وأنا أجيبها، وأحيانًا أعجز عن الإجابة! فتعيد السؤال نفسه، وأنا أصمت، فتأخذ هي بالحديث بكل ما تعرفه من كلمات.

أمضينا يومنا بطوله، أنا وغِنى وأحاديثها وشجرة الزيتون. أنهينا عملنا قبيل الغروب، وبعد تناولنا الطعام، رأيت غِنى تلعب بالألوان، وترسم على ورقة بيضاء شجرة زيتون كبيرة.

ورقة بيضاء

اليوم سأترك أقلامي وأفكاري، ومعاجم اللغة.

سآتيك ورقة بيضاء لتكتبي عليها ما يجول بخاطرك.

سآتيك بدون قصائدي، وسأترك خطبي العصماء في دولابي الخشبي.

سآتيك وحيدًا بدون قيس، أو المتنبي، أو نزار.

سآتيك عاريًا بدون أفكار، وسأضع رأسي في حجرك الدافئ، وأستسلم كطفل في الثانية تعبثين بشعره، تمررين أناملك بين خصلاته الملساء.

سآتيك في المساء، مع شروق الشمس، في منتصف النهار، مع الأسحار.

سآتيك ولا أحمل غير قلب تمزق من لهيب الشوق وهيام العشق السرمدي.

سآتيك هكذا.. فهل أنت راضية؟

الدنيا

ما بك؟ تبدو لي وكأنك لم تنم منذ أيام! لا يا سيدتي، إنما هي الحياة، كد في كد في كد؛ كد فكري، وكد عاطفي، وكد جسدي، كل ما فيها ألم، وتحد، ضحكاتها مشوبة بخديعة وبؤس أسود. تتحين الفرص لتنشب في قلبك الطري مخالبها، فتفتك بك فتكًا. لا أعتقد بأن ثمة حياة أو فناء يضاهي عذابات هذه الحياة. إن شر الشرور هو الإنسان نفسه؛ هو الذي يدّعي، وهو الذي يكذب، وهو الذي يواري وجهه الحقيقي خلف ابتسامة تبطش بالضحية. ليس ثمة كائن آخر بقسوة الإنسان، فهو الذي يقتل للمتعة، ويمارس للمتعة، ويستولي على المكان من أجل المتعة، ويعلق وجه القمر على حبل مشنقة من أجل المتعة. أقولها وقد قالها صعلوك من صعاليك ذلك الزمان: "فإني إلى قوم سواكم لأميل".

عقوق 1

كان يحبو على ركبتيه. يحاول صعود السلم الحجري. كنت أرقبه مستبشرًا فرحًا. صعد أول السلم.. درجة.. درجتين.. ثلاث.. حاول الوقوف على قدميه الصغيرتين. قلبي قفز من بين الضلوع، وثبت نحوه فاتحًا ذراعي على مصراعيهما. سقط من مكانه، وقبل أن يلمس رأسه الصغير الغض بلاط البيت، أمسكته بيدي، وأمطرته بوابل من القبل. بعدها قررت أن لا أتركه يصعد السلم وحده.

دارت الفصول، وتشققت الأيدي من الشتاءات الطويلة. نهض قوامه، وبرزت عضلاته، وخشن صوته، فصار يشبه صوتي كثيرًا. لم أعد أراه كما كنت أفعل من قبل، فقد ضعف بصري، وتراكمت أعبائي. تأفف من تشققات وجهي، وتأوه من زفراتي، وأزعجته أوجاعي المتراكمة.

نفد صبره، فأشهر سكينًا ليقطع وصلات الهواء عني، فيستريح من مـوتي السريري.

حُلم

ماذا لو كان لديك ألف درهم؟ ماذا تفعل بها؟

أنا لم أفكر بهذه الطريقة أبدًا، ولا أتخيل أن أمتلك هذا المقدار من المال!

على العموم، كنت أضعه في البنك، خوفًا من السرقة، وكنت أستقيل من عملي، وكنت أتزوج بفتاة جميلة تشبه (جينيفر لوبيز)، وأغرق معها في (الباسفيك).

كنت أسافر إلى كل القارات، وكنت أشتري قاربًا أنيقًا، وسيارة فارهة لها سبعة أبواب، وحصانًا عيناه صافيتان بلون العسل الجبلي، أسابق به الرياح العاتية، وكنت أسير كالطاووس مزهوًّا بمالي وجاهي، وكنت أترشح لمنصب عال في الدولة، ربما وزير، أو نائب في البرلمان، ولن أجالس إلا الأعيان والأثرياء أمثالي، ولن أتكلم مع الناس إلا من شرفتي

هـذه... ومـا كـاد يلتفـت ليـؤشر عـلى شرفتـه حتـى صـدم رأسـه بحديـد النافذة، فوقع مكانه جثة هامدة.

خيبة

فتَّحت له الأبواب على مصراعيها. استقبلته ببشاشة غير معهودة. دخل يجول بناظريه. ورَّدتْ وجنتيه. جلس على مقعد وثير يشبه كثيرًا ما في قصور ألف ليلة وليلة. غاص في المقعد. أغمض عينيه. تقلبت الأحلام في رأسه.

بعد دقائق، ربما ساعات، وربما أيام، فتَّح عينيه فلم يجد القصر، ولا المقعد الوثير، ولا الأحلام، ولم يجدها، بل وجد بركة فيها بعض ماء، وسط صحراء قاحلة.

النفس

أرويها فتشقيني. أداعبها فتلهيني. تغويني. تضللني. تنزع عني أحلامي. تسلخ زماني. تتركني على قارعة الحياة جسدًا باردًا. تنخر في جسدي المتيبس.

أحاول إعلان العصيان، فتنزل لي جنودها المدججين بأنواع الغواية! لا قدرة لي على مواجهتهم. أحاول الهرب من أمامهم.

أحاول التشبث بثوب أبيض ترتديه سيدة النقاء، فترسل لي مقاتليها الأشداء، ترسلهم بأشكال وأزياء متنوعة، وفي ليلة ليلاء حسمت أمري؛ انتعلت حذائي الأبيض الجديد، سحقت به كل شهواتي، وتركتها لموتها البطيء.

- أنا قلقة عليك يا سيدي! فلماذا كل هذا التشاؤم؟

– معك حق. لا بد أن أبتهج من كل شيء! فالحياة رياض من السعادة، فيها الجار يبتسم في وجه جاره، والأخ يحافظ على مشاعر أخيه، والشباب ملتزم بالأعراف والتقاليد الاجتماعية القديمة والجديدة، والبنات يحترمن ذاتهن، ويتحدثن بصوت هامس، ولا يخرجن عن المألوف، وأهم هواياتهن القراءة والدراسة، والأمهات متفرغات لتعليم أبنائهن، وتربيتهم على القيم النبيلة؛ كالصدق.

إيداع

تسألني النجوم، ما بك؟ لا أعرف لها جوابًا، فقد غاب ظلي وطيفي، وتمزقت أوراقي قبل أن يجف حبرها، وتبعثر ظلي بين البحر والسماء الثامنة، وأودعت حلمي أمانة بين أضلعها الحريرية.

رياح

أين أنتِ يا رياح الجنوب لترطبي قلبي، ولتطفئي عصف أوتاري الصوتية المشبعة بلهيب الشوق القرمزي؟ تركتني هكذا لغيرتي المتأججة من بحرك العاري، فلا أمواج، ولا رمال، ولا أصداف بيضاء، ولا محار، ولا حتى قبل.. هي رؤى، أو بعض أحلام، لكنها نسمة جنوبية مرت تتهادى خلف قافلة من كآبة الفراغ.

ضوء القمر

تحدثني المسافات، وأنا أستجديها، ربما هي بريئة بحيث تنتهي بخيال أحلّق معه ساعة سكون. ربما هي شريرة ترغب كثيرًا بتعذيبي كلما سرت في فضائها. ربما تريد إغوائي بملامحها الطفلية. ربما تحلم بعناقي حين أتوسط سماءها. ربما تبيت لي ذبحة صدرية تحملني إلى المجهول.. لكن ضوء القمر ينير لي الطريق.

عبث

سألتني البجعات: هل تبت وتركت العبث؟

قلتُ مرتجلاً: العشق روحي فكيف أهجره؟! مذاقه طيب ونشوته عشقٌ إذا ما الظمآن صافحه، أسعده بريق جوهره.

لوحة

نهض مبكرًا. مشى نحو البحر. البحر غاضب، غاضب. الأمواج عالية، تتوالى تباعًا.

السماء صافية على غير عادتها في مثل هذا الوقت من السنة.

الرمال المبللة بالماء تلمع كبريق الذهب، والأصداف متناثرة بعبثية "دالي" على أطراف الخط بين ماء البحر وظل الصخور المدببة.

جلس مستمتعًا بما حوله فوق تلة خضراء محاطًا بالدفلى، ونسمات هواء مجدلاوي معبق برائحة البرتقال، وأوراق وأقلام ثائرة.

يرقب صقرًا محلقًا على مستوى منخفض. يتحين فرصة لاقتناص فأر يبحث عن كسرات خبز تركتها طفلة تلعب بطائرتها الورقية. زمجر البحر على حين غرة. كشّر عن أنيابه. ارتفع الموج بسياطه. خطف الدفلى. بعثر

الأوراق. ابتلع الأصداف. صادر بريق الذهب. قذف به من علٍ. أسقطه بين الصخور المدببة، فتهشمت أضلاعه.

ما زلت أبحث

فراشات بيضاء تحلّق نحو الضوء الساطع من خلف العتمة. ياسمين، وبيلسان، وشرفات، ووجوه بشوشة، ومحراب، وناقوس، وشمعة كبيرة تتوسط شمعدانًا، وبؤس، ونعيم، وسيوف ذات نصلين، وقباب، وخيول أصيلة سمراء، وخطوط مستقيمة، ودوائر بأحجام كثيرة، ومخلوقات عجيبة لها أيد كثيرة ورأس واحد صغير، وقبة ذهبية جميلة، وأخرى فضية، ونور وظلام، وحق وعدوان، وألوان سمراء وبيضاء وخضراء وصفراء ورمادية بشعة، وأروقة، ومعابد، ودموع، وقلوب ممزقة حزنًا، وخيبات، ورجاء، وأمل، وأمنيات عريضة، وشقاء ما بعده شقاء، وحب، وضغينة، وكبرياء، وانتظار طال.. طال.. طال.. وأنا حائر.. خائر.. أبحث في كل الاتجاهات.. وما زلت أبحث.

عقوق 2

انتظرته حتى إذا فرغ لي فؤاده وبصره، قلت له:

- يا طبيب المعذبين أنجدني يا طبيب.

- لكنني لست طبيبًا يا سيدتي!

- ألم تشف تلك العيون عندما سكبت فيهما علاجًا فوريًّا للحب؟ ألم تعالج ذاك الرأس من وجع الشقيقة البغيض؟ ألم تخرج صديقتنا من وساوسها وقلقها القاتل؟ ألم تجمع قلبين بالحب الأبدي؟

- نعم، ولكن..

- موجوعة يا سيدي. قلبي يتمزق، وكبدي يتهتك، وعقلي يكاد يتفسخ. أنت وحدك من بيده شفائي.

- لا تبالغي سيدتي.

- ابني يا سيدي. ابني هدّني. أتعبني. أفقرني. يتنكر لي. ولدي الذي سهَّرني الليالي. حاربت أقرب الناس من أجله. بعتُ كل غال ورخيص من أجل راحته. إنني أراه يغرق. يغرق. يغرق في ضلاله، وفي غيه، وفي جهله، وفوق ذلك يستفحل في عقوقه. أرشدني بالله عليك، ما العمل لإنقاذه من نفسه؟

- كان الله في عونك سيدتي. أنا لا أعرف كيف أساعدك في حل مشكلتك هذه، فأنا عاجز عن حل مشكلتي التي تشبه كثيرًا مشكلتك!

حلم وحقيقة

المدينة أعلنت حالة الاستعداد القصوى لاستقبال "أفروديت". لبست الشوارع زينتها الأسطورية، وتوشحت النساء بقصائد الشعراء العذريين، والرجال ما عادوا يقفون على منابر العشاق، فقد أذهلتهم الآلهة بجمالها، وسلبت أحلامهم.

أما أنا فقد أعددت طقوسي السرمدية، حملت قلبي على كفي الأخضر لأغرسه في حقول النرجس، فينبت الدوح تحت أهدابها.

التأم جرح الياسمين. استعاد الورد الجوري لونه المخملي. لم يعد رغيف الخبز الأسود ينهش في عظامي، فقد تقلَّمت مخالبه.

فاح عبير البيلسان عطرًا ثوريًّا، وعبقًا سماويًّا، وحنانًا أذاب التاريخ الأسود المتذبذب.

كنت على رأس مستقبليها. ننظر نحو الشرق لعلها تأتي على ظهر غيمة، أو مع نسمة صيفية.

سأحتضنها بذراعي. سأحملها. انتقل بها من ربوة إلى أخرى. أطوف بها في كل الساحات. أمر بها على كل بيت في المدينة. بيديها ستمسح الحزن عن شرفات البيوت العتيقة. هي خفيفة كفراشة تعانق زهر البرتقال. حملتها في قلبي. تتربع فوق برجها الماسي. "أفروديت" تتربع على كل العروش، فهي من عصر الجمال الإغريقي آلهة العشق.

صحوت من غفوتي على وقع ضربات بأعقاب بنادق أيقظت كل من في البيت، بل كل من في الحي. ارتديت سروالي. أفرغت ما في جيوبي، وانتظرتهم على طرف السرير، في غرفتي.

سديل

بيتنا بارد. الثلوج تحيط بالبيت من جميع الجهات. الظلام دامس. الكهرباء مقطوعة منذ الأمس. أشعلنا ما تيسر من الأخشاب. صنعنا موقدًا من تنكة الزيتون الفارغة. تجمعنا حول الموقد ندفئ بعضنا بعضًا.

سديل، حفيدتي الجميلة، عمرها أربع سنوات، تضحكنا حتى الثمالة وهي تقلّد معلمتها. تتحدث مثل العجائز حسب رأي جدتها. أدفأت المكان بخفة ظلها. هي تقلد كل من تعرفهم؛ تقلدني، وتقلد أمها، وجدتها، وتقلد أباها، لكنها لا تقلد الصغار، لا تقلد غنى، أو يحيى، أو حلا، بل تعطف عليهم، وتحب اللعب معهم.

أنا أُحب سديل.. إنها تدفئنا في هذا البرد القارص.

لوز

قالت أمي وأنا أهم بالذهاب إلى عملي:

"لا تنس أن تحضر معك بعضًا من اللوز الأخضر".

نظرت نحوها فأسرتني ابتسامتها.. تركت حقيبتي، وزوادتي، وخرجت أبحث عن شجرة لوز مخملية.

(القدس، 21 آذار)

اسمٌ واحد

لي لون واحد؛ كلما نظرت إليه تاقت نفسي لعناق الأثير.

لي عطر واحد؛ كلما فاح عبيره تتملكني الغبطة.

لي طبيب واحد؛ لا يتركني في مرضي.

لي بقال واحد أمين.

لي مرآة واحدة مصقولة.

لي لسان واحد؛ أبوح به بسرّ اسمك.

لي حياة واحدة؛ أعيشها في فيئك.

لي سماء واحدة؛ أغوص في زرقتها كلما اجتاحني الجراد.

لي طريق واحد؛ يتجه شرقًا.

لي حلم واحد؛ أحلّق معه بين متاهاتي النرجسية.

لي سيف واحد بتار؛ أسلّه في وجه الذئاب، وذوات العيون الرمادية.

لي وسادة واحدة؛ تحتضن غفوتي، وسلوتي، وبعضًا من أسراري.

لي وجود واحد؛ تنازلت عنه لبريق عينيك.

لي اسم واحد؛ يتكون من حروف اسمك.

صرخات زجاج

ألا يمل الليل من طوله؟

كانت ليلة بحجم العتمة. ظلام مدلهم. زخات متتابعة من المطر الغزير الذي كانت حباته تهزأ من سكون الزجاج، فتجعله يصرخ بأعلى صوته مستغيثًا من هذا العابث.

تعاونت الرياح والزوابع والظلمة وصيحات الزجاج على إيقاظي القسري. سلبوني من حلم كان يسكب السعادة في قلبي. هو حلم وحقيقة. استيقظت منه ساخطًا ألعن الليل، والمطر، والرياح، والزوابع، والزجاج، والصراخ.

حاولت العودة من جديد إلى حلمي السعيد فلم أفلح، فقد تصدت لعودتي صرخات الزجاج المدوية.

الموت

من قال إن للموت ألـمًا؟

أنا لا أظن ذلك. كيف يمكن أن تصدقوا مثل هذه القصص الخرافية التي يرويها أناس لم تطأ أقدامهم هذا الفضاء؟ ربما فيه راحة. ربما هـو الأجمـل. ربما فيه الخلاص من أوجاع الـسُّكر. ربـما فيـه حيـاة ليست كالحيـاة. ربـما يغيب عنه القمع وسطوة الجلاد. ربما ليس فيه جبروت، أو انتظار.

عمومًا؛ هو لا يشبه شيئًا نعرفه. هو مميـز في كـل معانيـه. رائـد في مراميـه. سخي لا يعرف البخل. يغـرق في النـور والظلمـة. دافـئ كقلـب عـذراء. جريء كأنثى تدافع عن بيتها العاري. سليل حـسبٍ ونـسب وجـاه. فتـيّ وهرم كالزمان. غامض ومنفـتح غـير متحيّـز. عـادل وظـالم، لكنـه يحفـظ سره، ولا يبوح به لحيّ.

انتظار

أين بوابة جهنم؟ لا تستغربوا! فهذا أول سؤال يطرحه السائل يوم البعث والنشور، لا لشيء، إلا لأن الانتظار أصعب وطأة وعذابًا من الجحيم.

الانتظار حالة نفسية تقرّبنا من الهذيان، وربما من الجنون.

حياتنا انتظار. حياتنا عذاب، وجنون، وهوس، وهذيان. ننتظر قطارًا في محطة ليس لها سكة حديد. ننتظر في محطة للحافلات المتجهة إلى السماء. ننتظر ما يسمونه الرجاء، أو الأمل. ننتظر الحبيب، أو الصديق، أو الذي كان رفيقًا. ننتظر حرية، وحورية. ننتظر يوم النشور. ننتظر على الضفة الأخرى لنهر كادت ينابيعه تنضب. ننتظر كلمة حلوة بطعم السفرجل. ننتظر فرحة تأتي إلينا على جناح فراشة بيضاء أهدابها ليلكية، وعندما نستريح من الانتظار؛ نرجع إلى سباتنا الشتوي لانتظار صيف آخر.

تسلّل

تسلل من بيته كما يتسلل شعاع من حضن الحلكة. خرج على أطراف أصابع قدميه. كتم أنفاسه خوفًا من صفيرها المتعالي، فقد عانى من سطوة الربو، ليس جبنًا منه، لكنها أصعب من حالات الربو، وأعقد من أزمات السُّكَّر.

هي مدَّعية، مجادلة أكثر من سفسطائية القرن الخامس قبل الميلاد. إن من يراها وهي تبعثر كلماتها هنا وهناك؛ يدرك من الوهلة الأولى مقدار تعاسة صاحبنا. ألا تعتقدون أننا نستطيع تمييز الشريرين عندما نراهم؟ نعم، أنا على يقين من ذلك، ربما لأنني أعاني ما يعانيه صاحبنا، أو ربما لأنني عشت مع حالات المعذبين، لكنني على يقين من أن أعداء الخير لا يمكن أن يتستروا بقناع العفة والبراءة طويلاً.

بذلت معها كل جهد ممكن. قلت لها: نحن معًا في هذا الكون، فلماذا لا نكون لطفاء مع بعضنا البعض؟ لم أجد أمامي إلا أن أكون لطيفًا عني وعنها.

كنت مهذبًا. التمست لها الأعذار. شحنتها بكل طاقة متاحة. شذبت حديقتها. رويت أزهارها الحمراء. نفضت غبار ستائرها. لكنني في آخر الأمر تسللت من بيتي مثل صاحبنا خلسة على أطراف أصابع قدمي.

هل أخطأت؟

كنت أعيش على حافة الحياة.

كانوا يقولون:

- هل سيجرؤ؟

وبالفعل جرؤت؛ لبست طقمي الأبيض، فأطلقوا النار عليّ. هل أخطأتُ؟

بِــرّ

"اقعدْ يا دابّة".

قَعَدَ. لم ينظرْ في عينيِّ أبيهِ، ولم يقلْ شيئًا. أطرَقَ برأسه. انتظر حتى أكمل والدهُ كلامه. نهضَ. قبَّلَ يديه ورأسه، وحمل عباءة أبيه بين يديه. قصد غرفته. أغلق بابها عليه، وأخذَ يجهشُ ببكاءٍ مُرّ.

أنا والبحر

لماذا كلما كان البحر هادئًا، كانت نفسيتي ثائرة؟ فما العلاقة بين البحر وحالتي النفسية؟ وهل ثمة علاقة كيميائية بين الإنسان والبحر؟ وكيف نشأت هذه العلاقة إن وجدت أصلاً؟

تتحول نفسيتي من حالات مدّ وجزر مرتبطة بحالات القمر! وللبحر حالات مد وجزر مرتبطة بحالات القمر أيضًا! وفي النفس غموض وخفايا لم تكتشف بعد! مثلما للبحر من غموض وخفايا لم يكتشف! وفي عمق البحار الدر، والجوهر الثمين! مثلما في عمق النفس من در، وجوهر!

البحر خطير؛ متقلب، غدار! وكذلك النفس؛ شهوانية، متقلبة، غدارة! للبحر رهبة غير موجودة إلا في النفس! فالنفس والبحر بينهما علاقة

تشابه، تكاد تكون علاقة توأمة! فهل نستطيع التحكم بـ"تسونامي" البحر الذي يبتلع كل ما في طريقه؟ وهل نستطيع التحكم بثورة النفس؟ إذا ما ثارت، وابتلع طوفانها الأخضر واليابس؟

الملاحظ أن "تسونامي" البحر يسبقه في العادة هدوء، بل سكون لافت! تمامًا مثلما يسبق غضب النفس وثورتها العارمة هدوء لافت للنظر... حذار حذار من ثورة الغضب، من "تسونامي" يدمر كل من يقف عقبة في طريقه، فهدوء النفس وصل حالة السكون الذي يخفي تحته مراجل بحجم القهر!

سنة جديدة

نهار جديد، وسنة جديد، وهندام جديد، وطاقة متجددة، وإفطار آخر، وشهيد ليس له رقم، وصبي يقذف حجرًا نحو الغرب، وامرأة تلملم بقايا زيتونها، وحلم ورثناه غاب في العتمة، وضياع حزين بحجم القهر. (بنلوب) تغزل حزنها وحيدة في برجها، ويبوس مكبلة تنسج حكايات على شرفاتها، تنتظر وعد السماء.. وأنا لا حول لي ولا قوة.. لكنني هنا.. أنتظر.

خيبة

نهض مبكرًا. ارتدى سرواله الجينز، وقميصًا خفيفًا من القطن المصري. حمل حقيبة فيها زوادة يومه، وزجاجتا ماء معدني، وهاتفه النقال، ونظارته الشمسية، وثلاث علب سجائر، وزجاجة "جكوار" عطره المفضل، ولم ينس أوراقه البيضاء.

ودع قطته (نيروز)، وهمّ بصعود جبل (جيس)، ليصنع رجل الثلج. سار بخطى ثابتة وعزيمة لا تتزعزع، وأخذ يمشي عبر منحدر وعر، حجارته مدببة، وصخوره جرداء بلون القرميد الأحمر. سار يتبعه ظله. كان يسير مسافة ثم ينظر إلى الأعلى، إلى قمة الجبل؛ لا تزال القمة بعيدة، ولا يراها فقد حجبها الضباب. تعثر أكثر من مرة وهو يحاول اختصار المسافة بالخروج عن الطريق اللولبي المتعرج. مئات من الأمتار تفصله عن

هدفه. جلس على حافة حجر برز من بين الصخور، بعد أن أنهكته المسافات. استمر بالمسير وهو يحمل حقيبته المتخمة بالأشياء، كلما سار خطوات، كانت القمة تبتعد خطوات أكثر.

نزل المطر وهو على سفح الجبل، كان لنزوله وقع حسن في هذا اليوم الحار، استمر بالتسلق دون توقف، وقبل أن يصل إلى حافة القمة، نظر إلى الأعلى فلم يجد الثلج؛ كان قد ذاب!

عزوف

قال الشيخ بسخرية:

- كانت مكتبة (أبو السُّكر) لا تخلو من القراء، واللي بتسأله وين رايح؟ بيقولك لأبو السّكر. ومن وين جاي؟ بيجاوبك من عند أبو السّكر.. الكل أبو السّكر، أبو السّكر، واليوم أبو السّكر سكّر!

من القدس

مررت بشاب حسن الطلعة، يجلس بقرب دوار المنارة. سلمت عليه، فرد علي السلام وقال:

- من أين أنت قادم؟

- من القدس.

- وأين بت ليلتك الماضية؟

- في المدينة العتيقة.

- ومتى تعود إليها؟

- حالاً.

فألقى بنفسه على ظهره، وتنفس الصعداء.

"كاتربلّر" Caterpillar

"كاتربلّر" تهدر كالبحر الهائج، هذا الصباح قبيل شروق الشمس، أتت على بيت في أطراف المدينة العتيقة، مدينة ملكي صادق، وهادريان، وصوفرونيوس.. مدينة العهدة العمرية.. مدينة السلام.

هدمت البيت ولمّا يسكنه أحد بعد. قتلوا أحلام عائلة وضعتْ كل آمالها ومدخراتها. قبيل الشروق قتلوا الأحلام، فلم يعد للشروق شروق.

"كاتربلر" أقامت دمارًا!

الغريب

نزلتُ من سيارة الأجرة بأقصى سرعة. كم أحنُّ إلى بيتنا في البلدة القديمة! الشوارع تكاد تخلو من المارة. الهدوء مطبق، وغير عادي. الياسمين يتدلى على جدران المنازل كالقتيل، وحمام (أبو يحيى) أصبح كالنسور الجارحة، ولم تعد للفلافل رائحة زكية.

تراجع قلبي عن الخفقان مرة واحدة عندما رأيتُ ذلك الغريب يجلسُ أمام البيت كأنه صاحبه!

"أرور"

حدّثيني سيدتي. قولي شيئًا لطيفًا كما تعودت أن تقولي في زمن الغياب. هل تظنين أنني خيالي إلى هذه الدرجة؟ ما عدت قادرًا على منافسة الزمان على الرغم من حصاري الخانق بنرجسية "جلجامش" الطاغية. لكنني لست "أرور"، وأنت عاجزة عن ولوج الزمان بأسلحتك الواهية، فماذا أعددت لعبور تلك الدروب المظلمة؟ ماذا تعلمت من عثراتك المتتالية؟ ماذا جنيت من عنادك؟ تظنين أنك عارفة بالماضي والحاضر والقادم رجمًا بالغيب! "أرور" وحدها التي تستطيع تغيير جلدك المتشقق، و"أرور" غارقة في عتمة الطوفان.

مدينتي

تناولتُ كتابًا يستلقي على يمين وسادتي، أشعل فتيل رغبتي بقراءة ما تبقى من رواية سكنت دفتيه منذ عصر قياصرة الروس، لأغيب في حياة أخرى بعيدًا عن هذه الحياة، فأجد نفسي في زمن المدن الغارقة بأنانية الطغاة.

سانت بطرسبرغ، مدينة الأدب والشعر والموسيقى، تعرضت للحرق، للحرب، للدمار، للسطوة العسكرية. سانت بطرسبرغ، بنيت من جديد، وعادت إلى عرشها مرتين؛ مرة في ظل البلاشفة، ومرة في ظل أهلها وناسها.

مدينتي، الآن، وقبل ألف سنة، رمى بها المستعمر بمختلف أشكال القمع، ولم يزل يَسُوم أهلها صنوف العذاب.

البيك

كان يجلس على كرسي خلف مكتب عريض من خشب الصندل ذي اللون الجوزي، دهن بطبقة ملساء كالزجاج. البيك- كما يسمونه- موظف "كبير" لدعم المدينة. ثمة عامل مختص يقوم بتلميع المكتب كلما وضع البيك يده المتعرقة من حرارة التدفئة التي يحلم بخمسها طفل يسكن في مخيم غير بعيد، ولولا سماكة ستائر المكتب المخملية، لكان البؤس الساكن في المخيم يطل عليه برائحته التي تزكم أنفه الذي تعود على رائحة البخور الذي يبخره به موظفه المختص بالبخور، خوفًا من حسد الحاسدين. لا يتحدث إلا ولفافة التبغ المستورد بين شفتيه، ودخانها يتصاعد من تحت نظارته ذات الإطار الدقيق. ينتفخ كالطاووس الإفريقي كلما تحدث مع أحد زائريه. يعلو صوته فوق صوت الكل. لا

يعطي مجالاً لمراجعيه لإكمال جملة واحدة. يتحدث عن صولاته وجولاته، وكلما أخذ وعدًا يلمس شاربه الذي يعتني به عنايته بمكتبه العريض، حتى خيل إليَّ أنه عيَّن موظفًا خاصًّا للعناية بشاربه نصف الأشيب. الغريب في الأمر أن اسمه تمامًا بعكس فعله، فهو لا يفي بوعد قطَعه، ولا يصدق بكلام قاله، ولا يؤمن جانبه، يلدغ كثعبان مجلجل، لئيم، مشاكس، متلون، غير أمين...

قلت له:

- أين وعدك لي بمساعدتي للمرور من فوق جسر التنهدات؟ جعلتني حائرًا لا حول لي ولا قوة في منتصف الجسر! قلتَ إن مروري آمن! فلم يكن كذلك؛ كدت أهلك، لولا أن عطف علي صياد فقير، صدف أن تواجد تحت الجسر. تركتني أعزل بين السماء والطارق. تخيلتك تجلس هنا على هيئتك هذه، تقهقه خلف مكتبك الخشبي العريض، وتتفاخر ببطولاتك في قهر المقهورين.

إنه يوم أخر ثقيل يمر عليَّ، وعلى القدس. يمر بطيئًا، متثاقلاً بأعباء تترنح تحتها المدينة الحزينة، كما صارت روحي تترنح من رائحة الخيانة التي تفوح من عينيه الخبيثتين. المدينة تئن من الألم، وأنا أئن من الصدمة، والبيك يفاخر بطقم جديد يلبسه من "بيير كاردان"، ويركب سيارة

فاخرة ذات زجاج أسود، يتجنب المرور من أمام المخيم، وقبل أن يغادر مكتبه العريض يضع لمسة نرجسية على رزم الدولارات في خزنته المتخمة بالخيانة.

نظرت في عينيه، خفت. لململمت بقيتي، وخرجت أتنفس الصّعداء.

(القدس، 4/ 3/ 2012)

عند باب الخليل

ليلة الأمس، على مدخل بـاب الخليـل، المـدخل الغـربي للمدينـة العتيقـة، أوقفنـي جنـدي أسـود بلـون أثيـوبي، ولكنـة عبريـة مكـسرة، وبكلـمات متباعدة، وحروف لا تمت إلى المكان بصلة، ثم سألني:

- إلى أين أنت ذاهب من هنا؟

- إلى بيتي.

- أين بيتك؟

- في عقبة البطيخ.

تحير الجندي الأسود، ونظر بطرف عينيه نحو جندي آخر يقف غير بعيد، كمن لا يريد الظهور بمظهر الجاهل، وزاد تلعثمه بالكلام، عندما سأل:

- أين عقبة البطيخ؟

- بجانب عقبة التينة.

- وأين عقبة التينة؟

- بجانب عقبة التوتة.

- وأين عقبة التوتة؟

- ليست بعيدة من عقبة الرصاص.

- وأين عقبة الرصاص؟

- قرب عقبة الميلوية.

- وأين عقبة الميلوية؟

- ملاصقة لعقبة الشيخ ريحان.

- وأين عقبة الشيخ ريحان؟

- غير بعيدة من عقبة شداد وعقبة البسطامي والزاوية الهندية والنقشبندية.

ثم سألني بغضب ظاهر:

- من أين أنت؟

- أنا من حارة السعدية.

صمت برهة، ثم سألني:

- أين حارة السعدية؟

- قرب باب الساهرة.

- أين باب الساهرة؟

- غير بعيد من باب العمود والباب الجديد.

- أين باب الجديد؟

- قرب باب الخليل.

- أين باب الخليل؟

- هذا باب الخليل، وأنت تقف في طريق عودتي إلى بيتي.

تلون وجهه بألوان غريبة لكنها أقرب إلى اللون البنفسجي (الباذنجاني)، ودفعني بيده وهو يصرخ قائلاً:

- كلكم إرهابيون.

البوابة معطلة

طابور طويل من رجال، ونساء، وشيوخ، وأطفال، ومرضى، وأصحاء. صف طويل، كلّ ينتظر دوره للمرور عبر بوابة الكترونية.

لم يكن ثمة جندي يراقب دخولهم، ولم يصدر ذلك الصوت الذي يشير إلى معدن أو غيره عند مرور بعضهم. الصف طويل، ويزداد طولاً شيئًا فشيئًا. لا يتناقص إلا قليلاً، وقبل أن يدخل الشخص يُخرج كل ما في جيوبه ويضعه على طاولة بجانب البوابة، كما يتجرد من حزامه وساعته وحذائه، كل ذلك بغياب الجنود. يزداد الصف طولاً، ويأتي عامل النظافة العربي ليقول لهم وقد اعتصره الألم:

- إن البوابة الإلكترونية معطلة.

إبعاد

خلتك ابتعدت عن مسرح المدينة؟

كيف لي أن أبتعد عنها؟ فقد تقمصتني. أنا والمدينة توأمان سياميان. لا أبرحها، ولا تبرحني. كيف لي العيش بدون تناول قهوتي على الشرفة المطلة على باب الساهرة! كيف لي التخلي عن جرعتي اليومية بالتجوال في أحيائها؟ أجلس على مسطبة باب الناظر بين الضحى والظهيرة، كأنني أجلس في روضة من رياض الجنة. الشمس الدافئة، والوجوه المشرقة، والنسمة العليلة، والسكون الذي يسلخ عني أوجاع القلب.

لن يبعدني عن المدينة قمعهم، ولن يبعدني قهرهم، ولا تهديداتهم. سأبقى هنا موجودًا، أمارس طقوسي اليومية. عشت أو مت، سأبقى خنجرًا في خاصرتهم.

بينما أنا وصديقي نتجاذب هذا الحديث، إذ بثلاثة جنود تتقدمهم مجندة شقراء يتقدمون نحونا.

المجندة:

- هاتوا هوياتكم.

قدم صديقي هويته، أما أنا فلم يكن بحوزتي هوية.

تهلل وجه المجندة بالبشر عندما عرفت أنني لا أملك بطاقة.

أخذوني إلى زاوية السور، وأطعموني علقة ساخنة، ونقلوني بسيارة جيب عسكرية إلى خارج مدينتي، وراء الجدار.

تاريخ متعب

ما زال الليل يغط في نومه العميق، والضوء يختفي خلف العتمة.

ترك أعمدة لورنس السبعة، وخرج من غرفته ليغرق في سكون الليل. في أول الأمر كان خروجه ثورة على كل شيء، وكان على وشك الصراخ معلنًا اشمئزازه من الصحراء، وما أنجبته من خيانة وصلت رائحتها إلى قلب مدينة هدريان وعمر وصفرونيوس، لكن السكون احتضنه بذراعيه الدافئتين، فأشعل سيجارة، ثم أشعل أخرى، نفث دخانها في الفضاء، وطفق عائدًا إلى سريره البارد.

عدْ إلى أثيوبيا

أنا وعلي وواصف، نجلس في قلب المدينة. نتناول جرعتنا اليومية مع القهوة السادة والسيجارة تتبعها سيجارة. نجول بأنظارنا. نرقب كل شيء؛ النساء والرجال، والشباب والصبية، والعربات الخضراء ذات الدواليب الثلاثة، وبسطات الباعة الذين كانوا يومًا ما متجولين، والوجوه العابسة والمتلونة بمساحيق الكرة الأرضية من "لوريال" إلى مساحيق جارتنا أم العبد المزينة الطروب. نرقب الجنود ببزاتهم العسكرية الخضراء ووجوههم الرمادية بلون الرصاص، يدوسون بلاطها الطاهر ببساطيرهم الغاشمة، التي لا تدري بمن مروا عليه، من صلاح، وعلماء، ومجاهدين، وعظماء. نرقب بلاطها البائس. نجلس. نكاد لا نتكلم. كل منا يمر على شريط ذكرياته. كل له قصته، وروايته، وطقوسه الخاصة.

نجلس في هذا الركن من المدينة. نسرح في أحلامنا، ولا نصحو منها إلا على صوت ريمون، يحيي زائرًا آخر.

كان ثلاثتنا، هناك، وفناجين القهوة السادة أمامنا، ومنفضة السجائر تمتلئ بأعقاب السجائر شيئًا فشيئًا. نرقب طفلاً بعمر الياسمين يجلس على حافة حجرية قرب باب العمود، يعبث بشكل عشوائي بدمية صنعت من بقايا قماش، وعيناه تتجهان نحو الجنود بقلق ظاهر.

تحرك أحد الجنود من مكانه، وتسلل كثعبان مائي، من بين المارين، نحو الطفل. خطف الدمية من يد الطفل. عمل فيها تمزيقًا، وصرخ بوجه الطفل:

- ارحل من هنا حالاً.

أنا وواصف وعلي، قمنا ومشينا نحو الجندي، وبدون مقدمات لطمه علي بكف يده على وجهه قائلاً له:

- ارحل أنت أيها الحقير.. عُدْ إلى أثيوبيا.

على ناصية المحراب

صديقك قالت؟ ولم تدر!

نظر إلى الشمس وقال لها: أطفئي أشعتك. وإلى القمر: أطفئ وجهك المنير إن استطعت.

بعد حين..

حبيبك قالت؟ ولم تدر!

رأيت الجبل، والشجر، والجداول، والسنابل، والأنامل المخضبة، والمراح، وأمواج البحر، والرمال، وصخور المشهد، والأفق الغائب في حضن الليل، والقصائد العذرية، والقلاع النبطية، والبيوت العتيقة، والتكايا، والصوامع، والكتب، والصحائف. رأيتها ترقص طربًا. ثم قالت: "أسعدتني أنت". فاحتضنتها بأهدابي، ومسحت أحزانها بأناملي.

باختصار

أنا لا أعرف شيئًا في هذه المدينة، وبقدر ما أحبها أنا غريب عنها يا سيدي. عرفتها أول مرة من أبي، ثم من جدي بعد استشهاد أبي في معركة النفق، واليوم أنت تدخلني المدينة كما يدخل الخياط الخيط في سم الإبرة. أنت رائع يا صديقي وأنا مبهور بمدينتي. لم يفها الشعراء ولا الفنانون حقها، ولم يرسموها مثلما رسمها العشاق. لم أعرف أحدًا رسم لي لسعة البرد اللذيذة ساعة العصر في تموز، ولم أعرف أحدًا وصف رائحة التاريخ التي تتسلل من مسامات حجارتها البنفسجية، وقد خانتني الأحلام في استحضار أريج ياسمينها.

باختصار؛ عليك الحضور إلى أفيائها حتى تعرف طباعها وأنغامها، ولسعة بردها، ومزاج أصحابها.

القلق

فتحت باب غرفتي المتكاسل. يكاد نور الفجر يبزغ. ما زال الوقت مبكرًا. طال انتظاري لنهار جديد. عبثتْ بي أفكار اختلطت مع جحيم قلقي. ارتديت وساوسي وهمومي وخرجت مع شعاع شمس تشرين، أريد جرعتي اليومية، لأربّت على ما تبقى في نفسي من وهج الألم.

صعدت إلى برج اللقلق لأكون أقرب إلى السماء. المدينة ساكنة، وأنا أجلس على عرشها أرقب قمرها وشمسها، نورها وظلها، فيئها وقيظها، رضاها وبغضها، قبابها وأسطحها، جبالها وأوديتها، عشقها ونفورها، بياضها وسوادها، صخرها وترابها، نساءها ورجالها، صبيتها وفتياتها، مدارسها وبيوتها. من أمامي الصوانة وجبل الزيتون، وبعض من واد الجوز، ومن خلفي باب حطة، وشارع الملك المعظم عيسى. لم أجد من

يقول لي مَن الملك المعظم عيسى! كنت أمشي يوميًّا من هذا الزقاق الذي سمّي باسمه، ومنذ تعلمت القراءة أسأل نفسي: تُرى من هو الملك المعظم عيسى؟ أنا لم أسمع حينها بأي ملك معظم غير الملك حسين. لم أجد من يبدد حيرتي الطفلية. كان بإمكانهم القول بكل بساطة: هو أحد الذين تركوا بصماتهم الشريفة على ذاكرتنا الذهبية، فهل يرضى ملكنا العظيم بما حلَّ بمدينته الماسية؟ وقبته النحوية؟ هل يرضى بما صار وأصبح؟

برج اللقلق مكان أجلس عليه كمن يجلس على حافة العالم. أتجرع دوائي. أترك همي وخيباتي على أطرافه لتحملها طيور اللقلق في طريق هجرتها الشتوية، وتنثرها رمادًا فوق أحلام الكون.

كان أحدها ينظر نحوي دون وجل. يفرد جناحيه ويحركهما كمن يحاول شحن قوته، لكنه يقف مرة على رجل واحدة حتى تخاله لا يملك غيرها، ومرة يقف على اثنتين. طائر فتي. عيناه صافيتان تطوفان داخل أروقتي البنفسجية، ربما يريد أن يعرف سبب وجودي هنا في برجه! لكنه يعرفني مثلما عرفني أبوه وجده. حمل همي ومأساتي وطاف بهما السماء والأرض. نقلها أينما حط وقلع. زرعها في وجدان السحاب حتى صارت توأمًا لكل جارحة. ما زال ساكنا يقف على رجله اليسرى، ربما يحافظ على توازنه

بهذه الطريقة! ولكن كيف يكون التوازن وقد وقف بجسمه الممتلئ على رجل واحدة؟ أليس الوقوف على رجلين أثبت وأقوى، وأكثر حكمة وتوازنًا؟ دعك من كل هذا.. هل لحم اللقلق لذيذ الطعم؟ لم أكمل جملتي حتى فرد الطائر جناحيه، وطار طار طار حتى غاص في قلب غيمة.

دوران

ألا تمل الأرض من الدوران حول نفسها كل يوم؟ ألم يحن الأوان بعد لكي تستريح من سفرها الدائم؟ أنا مشفق عليها! أشفق عليها كل يوم، لا شيء يمنعني من ذلك.

تحدثني سحابة مرت فوق بيتي متعبة. تشكو ضعفها وقلة حيلتها. بكت بدموع كرذاذ دافئ منعش. غسلت به الورود أوراقها المتوردة. رفعت الوردة المخملية رأسها باستحياء يشوبه الدلال العذري. نفضت حزنها. أخذت تصلي خاشعة تجاه محراب المدينة العتيقة، فتشبع الهواء بأريجها.

باب خان الزيت

في باب خان الزيت، الإسكافي الوحيد، هو من بقايا الزمن الجميل، جلست قبالته، أتمتع بالنظر إليه، وشريط طويل من الذكريات يمر بخاطري، من أمام حانوته كنت أمر كل يوم أثناء عودتي من المدرسة إلى البيت، لم ألحظه فيما مضى! ربما لأن الأشياء الجميلة كانت تتزاحم في المكان!

اليوم، لم يبق إلا القليل القليل مما كان، يكاد لا يوجد غير الإسكافي، في هذا المكان.

هنا، في خان الزيت، الحوانيت غيرت واجهاتها، الوجوه تغيرت، لكن الملامح هي هي، الذين عرفتهم رحلوا، رحلوا يحملون قصصًا وحكايات، يحملون تراثًا بحجم القدس.

أبو إسماعيل، رجل لطيف، يحب الرياضيين، ويقدم لهم الـشاي بالنعنـاع، والمشورة والتوجيه، في ناديه الشعبي المتواضع، أسس أبطالاً كبارًا في لعبة رفع الأثقال. أبـو إسـماعيل، علـمٌ مـن أعـلام القـدس. كنـت غائبًـا غيابًـا قسريًّا عندما طالته يد الغدر، كما طالت معالم أخرى من معالم المدينة.

خيانة

اليوم الجمعة. أمس أنهيت عملي. سلَّمت أوراق مشاريعي للمؤسسة المختصة. المسؤول بنفسه استلم الأوراق. وعدني بتحقيق الأمن للمشاركين، فارتحت لوعده.

أنا أعشق أيام الجُمع. ألتزم بيتي. أغلق جميع هواتفي. أشعل فتيل سكينتي. أحتضن أوراقي، وأقلامي. ثمة رغبة جامحة في داخلي تدفعني نحو فكرة الكتابة. أمسكت قلمي، وكتبت كلمة واحدة، بل كلمتين. مزقت الورقة وعجنتها بيدي. ضغطت عليها بكفي كمَن يقتص منها، وألقيتها في نار الموقد لتحترق. كتبت أخرى، وتلقت مصير أختها نفسه. أخذت أكتب وأرمي في النار. أكتب وأرمي في النار، حتى صار لهيب الموقد عاليًا، وأصبحت حرارة الغرفة مرتفعة، كسرت برودة كانون. لم

أكفّ عن الكتابة، ولم أقلع عن التمزيق. تأججت النيران في الموقد، وذاب البرد بأحضان لهيبها، فتحركت الدماء في أوعيتي، وفارت الأفكار، فانثال الكلام على الورق كشلال متدفق من أعالي الجبل.

كتبت. تخطيت جملتي الأولى، وفقرتي الأولى، وورقتي الأولى. رسمت بالكلمات حلمي الذي راودني ليلتي الفائتة. أنا أحب السفر، وأحب الطيران. لا أخاف الارتفاع فوق السحاب، لكنني أفضل السفر برًّا، فالطبيعة في بلادي آسرة، لكن حلمي كان في الطيران. رأيت نفسي طائرًا محلقًا، أمسك بيدي بالونًا أحمر كبيرًا، بحجم قامتي. كنت أحتضنه. يرتفع بي من مكان إلى مكان. أحلق به في سماء المدينة العتيقة، لا أرتفع كثيرًا. أطير فوق الرؤوس بقليل، وأثناء تحليقي داخل البلدة القديمة قرب سوق البازار، غير بعيد عن حارة الشرف، وكان الوقت قُبيل الغروب، إذ بمجموعة مستوطنين يهود، تخرج من خلف زقاق قرب حوش الشاي، أخذوا يقفزون نحوي، يحاولون إمساك قدميّ لإنزالي. لم يفلحوا. حاولوا وحاولوا وحاولوا، مرات كثيرة حاولوا، حتى أجهدتهم المحاولة. كنت واثقًا بأنني سأفلت من كل محاولاتهم. كان الأدرينالين في وجهي عاديًّا، وأعصابي مطمئنة، ونبضي كالمعتاد منتظمًا بدقاته المتناغمة، فإذ بيد تمسك قدمي اليسرى من الخلف، تحاول إسقاطي أرضًا. نظرت نحو صاحبها

فإذا به رجل له لون كلون بشرتنا، لكنّ لون عينيه تميلان إلى لـون عيـونهم الرمادية البارد. شهقت شهقة عالية، عنـدما تيقنـت بأنـه الـشخص نفـسه الذي أودعته أوراق المشروع، فوقعت مغشيًّا عليَّ.

ابتعدي

قلت لها:

- ابتعدي، ارحلي، فعقلك المتحجر يُغرقني كـ"التايتنك"...

فابتعدت!

درج الطابونة

هنا في القدس، في باب السلسلة، غير بعيد عن سوق الباشورة، مقابل خان السلطان، بضع درجات تصل طريق باب السلسلة بحارة الشرف، تسمى درج الطابونة.

اليوم الثلاثاء. أنا هنا أجلس على الدرجات أستعيد بعضًا من ذكريات الطفولة. هذه الدرجات لها ألفة كبيرة في نفسي. أحبها كما لم أحب مكانًا مثلها، فقد طُفت الكرة الأرضية طولها وعرضها، فلم يترك في نفسي مكان أثرًا مثلما تركت هذه الدرجات.

درج الطابونة، والمخبز الذي يحدها، وحجارتها، واسمها الموسيقي، وأطياف أحبتي، تشكل عندي أغنية أفتتح بها نهاري كلما زاد الحنين واحترق الجوى.

أجلس هنا على الدرج في وسط النهار. أستمتع بما تبقى في ذاكرتي الهرمة، لكنني صحوت من سفري مع الذكريات على وقع أقدام غريبة لا علاقة لها بذكرياتي، ولا بحاضري، ولا بحساباتي السياسية، ليقول لي صاحبها: "قم من هنا، أنت تغلق الطريق، أفسح لنا". نظرت في عيونهما الرمادية، وقلت بغضب وبصوت واحد: "لا طريق لكما من هنا إلا على جثتي"، فابتعدا هاربين.

جولة مقدسية

قلت لكم إنني أحب أيام الجُمع، وها أنا اليوم بين أيديكم، في يوم جمعة مباركة، أرغب في الولوج إلى قلوبكم، أفسحوا لي مكانًا بين ضلوعكم.. أفسحوا؛ ليس فعل أمر كما يبدو لكم، لكنه تمني ورجاء. أنا ومدينتي العتيقة صرنا جسدًا واحدًا، منذ بدأت أحبو على ركبتي، قبل نحو ثلاثة آلاف عام. أنا لا أحفظ التاريخ مثلما أحفظ تضاريس المدينة.

اليوم، أنا وأنتم، سنسافر برحلة قصيرة، نفطر المطبق عند "زلاطيمو" في مخبزه القديم، الذي يشغله على حطب الزيتون، قرب مدخل كنيسة الأقباط، المتفرع عن سوق خان الزيت، ونشرب عصير الجزر عند "أبو عصب" مقابل حوش الشاويش. في حوش الشاويش، يسكن صديق طفولتي هشام القواس، كنت أنا وهشام وإسحق وعدنان وصلاح،

وأحيانا كان يصحبنا زيدان وعرفات، كنا نقضي أوقاتًا طويلة في غرفة هشام الصغيرة. ثمة مكان أحب الجلوس فيه وهو مقهى صغير يقدم الشاي والقهوة والأراجيل، التمباك، وليس المعسل، لم يكن المعسل معروفًا أيامنا، بل كان التمباك العجمي، وأنا لا أحب التمباك ولا الأرجيلة، أما أصحابي، فقد أحبوها كثيرًا، كنت أدوخ من رائحتها، ومرة مرضتُ من رائحتها، أصابتني دوخة ودوار رأس ألزماني الفراش مدة أسبوع، لم أخبر أصدقائي عن سبب الدوخة خوفًا من سخريتهم المزعجة آنذاك. من الطريق المار بجانب المقهى توجهت إلى حوش القيرمي، قرأت الفاتحة على روح الولي، ثم نزلت إلى عقبة الخالدية، ومنها إلى عقبة السرايا، في عقبة السرايا المدخل ذو البوابة الحديدية الواسعة لمدرسة الأيتام الصناعية، اليوم المدرسة مغلقة، لكن الحارس موجود، هو يعرفني، لكنه لم يتذكرني في البداية، حيث تغير شكلي بعد أن فقدت شعري، وشقق الزمن جلدي، إلا أنه تذكرني بعد أن ذكرته ببعض الأمارات التي يعرفها عن شلتنا، فأخذني بالأحضان، وقدم لي كوبًا من الشاي بالنعناع ولا أطيب منه. صعدت درجات سلم حجري لأنتقل إلى قسم الدراسة الخارجية. وصلت إلى غرفة صفي، أيام الثالث الإعدادي، تذكرت أستاذ فرح عندما أحضر راديو ترانزستور بحجم كف اليد، كان

يتابع أخبار حرب تشرين، اللواء الثالث المصري محاصر بالقرب من قناة السويس، اكفهر وجه الأستاذ فرح عند سماعه هذا الخبر بعد أن كان سعيدًا بعبور الجيش المصري قناة السويس، الجيش السوري دخل المعركة في الجولان، والسعودية أوقفت ضخ النفط، كلها أخبار مفرحة. الأستاذ فرح، معلم اللغة الإنجليزية، حفَّظنا كتاب اللغة الإنجليزية بقوة العصا. نزلت سلم حجري آخر يؤدي إلى عقبة التكية، هي درجات مسجد الرصاصي، ومن هناك وصلت إلى شارع الواد، اليهود غيروا اسمه، وصار "شارع هجاي"، إنه اسم غريب لا يعني لي شيئًا، لكن رسائل أصدقائي لم تعد تصلني. بادئ الأمر استغربت ذلك، لكن زال استغرابي عندما علمت أن عنواني تغير، صار علينا كتابة اسم الشارع كما سماه اليهود، وليس كما هو في الأصل، أشياء كثيرة يقوم اليهود بتغييرها.

توجهت إلى الحرم باتجاه باب الناظر، يتجمع عدد كبير من جنود الاحتلال. أقاموا الحواجز الحديدية. حاولت المرور من بينهم. أوقفوني. قال لي المجند:

- ممنوع المرور.
- أنا ذاهب للصلاة.
- ممنوع، هذا الوقت مخصص للسياح.

صُدمت، بل صُعقت. لم أجادله. أقلعت عن التجوال. رجعت بيتي. من يومها، كرهت السياحة والسياح.

جدّتي

جدتي تعيش في الغربة. هي من بقايا دير ياسين. أحيانًا تأتي بتصريح إلى القدس، وتمكث عندنا حتى يكتشف اليهود بأنها تجاوزت الفترة، فيطردونها خارج الوطن.

جدتي (شهندة)، كانت مدخنة شرهة، تدخن سجائر "لولو"، في آخر سبعين سنة من عمرها دخنت مائة سيجارة لولو في اليوم، خمس علب كاملات! كانت تدخن وتشرب القهوة على الريحة، لكنها لم تكن أكولة، تعيش على قطعة خبز محمصة كل صباح، ومثلها في المساء، وكانت على الغداء تحب البطاطا المقلية.

جدتي (شهندة) قصيرة، ونظرها خفيف جدًّا، تستعين بنظارة عدساتها سميكة سُمك كاسة القهوة. كانت تمتدح كل من يحضر لها علبة سجائر.

أنا عرفت نقطة ضعفها هذه، وكلما أردتها أن تمدحني أمام والدي؛ كنت أقدم لها علبة سجائر لولو.

جدتي عاشت قرنًا من الزمان.

جدتي ماتت قبل أعوام. ماتت وهي تكره اليهود، لأنهم لم يسمحوا لها بالمكوث في القدس.

جدتي دفنت هناك في الغربة.

حريق

تحجّرت الدموع في مقلتيه. لم يبكِ، ولم يتفوّه بحرف. استسلم ككتلة صماء بين يدي الشاب الأسمر الذي تعرّق بدنه من ألسنة اللهب.

تهشم زجاج الحافلة، وتحطمت واجهتها الأمامية. فقد السائق وعيه بالضربة الأولى، فتحيد عن المشهد. الأطفال والمعلمات أصابهم الذهول في الثانية الأولى للصدمة الأولى، وفي الصدمة الثانية من ذيل الشاحنة؛ انقلبت الحافلة على جانبها الأيمن، فأغلقت كل المنافذ. الباب الأمامي والباب الخلفي مغلقان.

هرع الرجال، وهرعت النساء، كلّ بيده ما يعتقد بأنه يساعد على إخراج المحاصرين. لم يكد الرجال المنقذون يصلون الحافلة حتى ارتفع اللهب من مؤخرتها، وتأججت النيران فيها. صارت مهمة المنقذين أصعب.

صعد شاب إلى ظهر الحافلة، وأخذ يُخرج الأطفال ويُمررهم إلى آخر واحدًا واحدًا، والنار تقترب منه شيئًا فشيئًا. الأعداد تتزايد، والأطفال يُخرَجون من فتحة الزجاج الضيقة الواحد تلو الآخر. كانت يدان مرتجفتان من داخل الحافة تخرج الأطفال، ويدان معرورقتان تتناولهم من الخارج.

الطفل محمد، بين يدي حامله في طريقه إلى سيارة الإسعاف، قال: "نزلني وروح جيب صاحبي محمود، وخليه يجيب بوطي معه، روح بسرعة".

دمعت عينا الشاب، وعاد إلى الحافلة ليجد النيران قد أتت عليها بالكامل.

الحافلة

احترقت الحافلة. عيون الأطفال والمعلمات تصرخ دون صياح. أيديهم الطرية تطرق على زجاج النوافذ فلا تجد الصدى. الشباب يصرخون: "أين الطفايات؟ أين الإسعاف؟"

يمر الوقت بتسارعٍ، وأجساد الأطفال تشوى على نار عيون جنودهم الرمادية. يستمتعون بلهب يعبث ببراءة الأطفال. يبتسمون من تحت خوذهم السميكة.

احترقت الطفولة، وبنادقهم الوقحة لم تزل مشرعة بوجه الرماد.

(القدس، 16/ 2/ 2012)

شهيدة

انتظرته أربع سنوات، لم تترك فيها وسيلة، أو مشورة، أو نصيحة، صغيرة كانت أم كبيرة، إلا وأخذت بها، علها تساعدها على تحقيق حلمها، وأمنيتها الوحيدة.

واصلت الليل بالنهار وهي تصلي لله. تصدقت، ووهبت، وعطفت على كل الأطفال. أحبّت كل طفل كأنه طفلها. مسحت الكثير من دموعهم، ورسمت الابتسامات على وجوههم الطرية الغضة. حكت لهم قصصًا وحكايات. أسعدتهم بـ"الشاطر حسن"، و"الليلة الحمراء"، وأحزنتهم وأفرحتهم بحكاية "سندريلا"، فأحبتها عصافير الجنة.

كانت (لينة) خلوقة. سمحة. مشرقة. دافئة كشمس نيسان المقدسية. أحبت كل الناس فأحبها الله، وتحقق حلمها، ونالت بعض أمنيتها،

وتحولت بقدرة السماء النطفة إلى علقة، إلى جنين احتضنته في أحشائها. فرحت به، وأفرحت كل من أحبها. انطلقت بسعادتها تحلّق في كل الأرجاء. لامست أطراف الفردوس. لمعت عيناها. ارتسمت سعادتها فرحًا على زهر التفاح.. على الروابي.. على الندى.. على أمطار السماء.

كان المطر رذاذًا ينزل على الأرض رحمة من السماء، والأولاد سعداء. تقول لهم: "انظروا من النوافذ، كم هو جميل المطر يا حلوين!" كانت العيون الصغيرة تراقب حبات المطر وهي تداعب زجاج الباص، وكان محمد ينفخ على الزجاج ليصنع بخارًا ثم يرسم عليه صورة معلمته التي أحبها، هذه عينها الخضراء، وهذا شعرها الكستنائي الجميل، وهذا وجهها الوردي. هي تراقب رسمه مبتسمة وكفها على بطنها تلامس جنينها تتحدث معه قائلة: "انظر إلى محمد؛ أريدك أن تكون مثله. وفجأة صرخ محمد، وصرخ الأولاد مذعورين: "الشاحنة تنزلق يا مس.. الشاحنة تضرب الجدار.. الشاحنة تصطدم بالباص". علت بعض الأصوات بالصراخ، وسكتت بعض الأصوات. انقلب الباص على جانبه كدمية. تحطم الزجاج، وغابت حبات المطر، واشتعلت النيران، أخذت بكل ما فيها من عزيمة وقوة تخرج الأطفال واحدًا واحدًا من بين النيران، ولم تتنبه إلى النيران وهي تأكل أطرافها. حاولت الخروج وهي

تظن أن لا أحد هناك، لكنها تذكرت محمد، فعادت لا تأبه للسعات النار، حتى وصلت إلى محمد وهو يحاول جاهدًا سحب طفل آخر من بين اللهب. حملته بيديها الاثنتين ورمت به من فتحة لا تتسع إلا إليه، وبقيت هي وجنينها وأحلامها وأمانيها.. بقيت هناك، بين يدي الرحمن.. شهيدة.

(القدس، 16/ 2/ 2012)

أحلام تحت الرماد

الشباب، هرعوا مسرعين، لا يلوون على شيء. هرعوا يحملون إيمانهم، وعزيمتهم، وخوفهم على أطفال كزهر اللوز. هرعوا يحملون ما طالته أياديهم لإنقاذ فلذات الأكباد من نار تحرق الأحلام والأجساد. يحملون طفايات، ودلاء فيها بعض ماء، والدموع تنهمر حزنًا على قلة حيلة اليد، والجنود هناك، يحملون بنادق وحراب، يسدون الطريق أمام الشباب وسيارات الإنقاذ.

أُطفئت النيران، ورفع الرماد، وبانت من تحته كتل كانت بالأمس حياة وحبًّا وبسمة وحلمًا. الشباب تقطعت بهم السبل. تحلّقوا حول الرماد. أسكتتهم صرخات الموت، فلم ينبسوا ببنت شفة.

(القدس، 16/ 2/ 2012)

وطني

قبـل أن يكتمـل رحيلـه، نظـر خلفـه. تجـاوز ظلـه. رسـم بيتـه، وحديقتـه، وأشجاره المثمرة. رسم الحبل المعلق على بكرة فوق البئر الذي أحب ماءه العذب في آب. رسم زريبة أغنامه، وقن دجاجاتـه البـدارة. رسـم مقعـده الخشبي تحت شجرة البلوط. رسمها في وجدانه قبل أن يرحل في نيسان. حملـه أيـنما حـل ورحـل. صـار يمطـر مـع أمطـاره، ويغنـي مـع طيـوره، ويعصف مع رياحه، ويموج مع سنابله، ويثمر مع أشجاره، ويتصدع مع تصدع جدرانه.

عشرة أمتار

عشرة أمتار تبعدني عن الجهة الأخرى من الحدود.. عشرة أمتار تفصلني عن الوطن.. عشرة أمتار طوال.. أطول مسافة على وجه الأرض، تكاد تكون أطول من قطر الكرة الأرضية. أجلس هناك أنتظر قرارًا حاسمًا للمرور إلى الجهة الأخرى.. قرارًا تأتي به مجندة شقراء أو مجند أسود.

أنظر إلى الطرف الآخر. أرى كل شيء؛ أرى سماء مختلفة. أرى الأشجار. الناس. الحجارة. التراب الأحمر. الحواجز الإسمنتية. الحديد. الزوابع. الأمطار. أرى كل شيء مختلفًا.. وأخيرًا، وبعد طول انتظار، جاءت المجندة لتقول:

– ارجع.. أنت ممنوع من المرور.

لم يعد ما نحلم به

في جلسة حنين قلت لها وقد جلست قربنا فتاة عليها ملامح الوطن:

- في هذه اللحظة يجتمع الواقع مع الحلم مع الحنين.

كانت كلماتي عابرة. قلتها بلحظة دفء لا أكثر. لكن الفتاة التي تنتظر على مقربتنا، تنهدت بأنفاس أحرقت الفضاء بلهيبها، فاتسعت المسافات، وتغرب المدى. ثم قالت بصوت تملؤه حسرة:

- لم يعد ما نحلم به.

ساد صمت مطبق، فلم نعد نسمع إلا خفقات قلوبنا المتداخلة، كل منا نحن الثلاثة ورابعنا موظف الاستقبال في تلك الدائرة الباهتة الألوان.

كلمات الصبية أعادتني إلى الفصل الأول من سيرة الوطن.. أعادتني إلى قافلة النساء اللواتي يحملن على رؤوسهن بعضًا من بيوتهن، ويحملن بين

أيـديهن أكوامًـا مـن فلـذاتهن الـذين لم ينطقـوا أحـرف الـوطن بعـد، وفي عيونهن دمع، وخوف، وصور حية لمنازل لم تجد السعادة قط، وخلفهن رجـال يحملـون همـوم الفـراق، ومعانـاة الهزيمـة، وفتيـة تختـار الـسماء بأسمائهم.

كنت أظن بأن تلك المنازل لم تزل حية في عيـون النـساء، والرضـع الـذين لثموا الحنين من أثداء أمهاتهم المعذبة ما زال الدم الذي يجري في عروقهم مجبولاً بترياق الصمود، والرجـال الـذين كـانوا شـيوخ أقـوامهم، صـاروا بقايا وطن يتكئ عليه الشباب حين يغترب المكـان. لكـن أنفـاس صـبيتنا الحارقة، كادت تفقدني الأمل.

(بيروت، 3/ 2/ 2012)

الحاجز

قبيل الشروق، ارتدى دموع أطفاله الثلاثة وأمهم المجروحة. حمل منشاره الحجري وشاكوشه ذات اليد الخشبية القصيرة، ومسطرين برأس رفيع. توجه إلى أطراف المدينة. وقف على ناصية الطريق الرئيس بانتظار فرصة عمل. مرت ساعة، وساعة أخرى، وأخرى.

وقفت سيارة (تندر) فيها رجل ملتح، وامرأة تخفي وجهها بنقاب كالح السواد. تجمع العمال أمام نافذة السائق الملتحي، كلّ يحاول اقتناص فرصة. صعد صاحبنا إلى صندوق السيارة. تهلل وجهه بالبشر. سأشتري علبة حليب للصغير، وبعض الخبز، وحذاء للبنت، وسأشتري الدواء لزوجتي. عندما وصلت السيارة إلى الحاجز، سأله السائق: هل لديك تصريح؟ نزل من السيارة، وطفق عائدًا إلى بيته بدون علبة الحليب.

هموم

أمس، جمعت كل همومي، وخيباتي، وطعناتي، وصدماتي، ويأسي، وكآبتي، ووضعتها في كيس من الخيش كبير، بحجم عذاباتي، أغلقته بإحكام، ثم ركبت قاربًا من ميناء يافا، وأبحرت إلى عرض البحر، وهناك، ألقيت كيس الخيش، ورجعت سريعًا إلى البر أشعر بالأمان.

نمت ملء جفنيّ. لأول مرة أنام هكذا منذ أمد بعيد، وما أن تنفس الصبح حتى فتحت النافذة لأشاهد البحر وقد فاضت دموعه، لتغرق نصف المدينة!

القاتل

جريمة قتل مروعة، لها أبعاد ومرامي عريضة، والقاتل معروف للقاصي والداني، يسير بزهو وكأنه لم يرتكب فعلته الشنيعة، والغريب في الأمر أن البعض يفسح له الطريق حين يسير، والبعض يفسح له في المجالس، يبتسم ويعرف في قرارة نفسه أنه قاتل!

يسير في موكب من السيارات والدرجات النارية ويعرف أنه قاتل. يشاهد على شاشات ذات أبعاد ثلاثية، بطقمه الأزرق وربطة عنق حريرية، ويتحدث بأحاديث الساسة، وهو على يقين بأنه قاتل. الغريب أيضًا أن أعصابه هادئة، ووجهه "منوّر" مثل البدر، وينام سبع ساعات في الليل، غير القيلولة، وبعض ساعات الضحى على الرغم من أن قلبه، وعقله، يعرفان أنه قاتل.

الفـلاح، والعامـل، والتـاجر، والمعلـم، وسـائس الخيـول في إسـطبلاته يعرفون إنه قاتل. شجر الزيتون، والنخيـل، والبرتقـال الحـزين، وحيـدر، والجرمق، والمشهد، والمكبر وقرنطل، وصحراء النقب، وصـفد، وحيفـا، وعكا، ويافا، وعسقلان، والمجدل، وقيساريا، يعرفون أنه قاتل! القدس، كل القدس، تعرف أنه القاتل. النساء يعرفن أنه القاتل. الرجـال يعرفـون أنه القاتل. الشيوخ يعرفون أنه القاتل. الأطفال تعلّموا أن القاتل يُقتل لا محالة.

المقتول

قلت لكم:

- إن القاتل يعرف أنه قاتل، فهل المقتول يعرف أنه مقتول؟

قد أتانا القاتل على مدرّعة غربية، وبياقة حمراء بلون الذبحة الصدرية، يحمل جواز سفر مترجم إلى العربية، لكن في لهجته لكنة عبرية. أنزل الشاعر عن فرسه، وصادر قلمه ورمحه، وأعلن نفسه أميرًا على الصحراء، وتسلح بالعقارب الصفراء، وأخرج الثعابين السوداء من جحورها، وأسكنها بجواره، وأطعمها أحلام الطفولة البريئة.

المقتول يعرف أنه مقتول، لكنه يعيش في ظله، ويحاول جاهدًا الخروج من سجنه الأسطوري، فيقتل مرة ثانية، وثالثة، ورابعة وسادسة، وسابعة، وثامنة...

طفلٌ

صرخ الجندي بأعلى صوته:

- من أين أنت؟

أجابه الطفل:

- أنتم تجلسون على عتبة بيتي.

نهض الجنود وقد استفزتهم إجابة الصبي.

دخل الصبي البيت، وخرج يحمل مكنسة لينظف العتبة.

إرادة

قرأ أبجديتها.

لم يعد يراها.

لم يشأ سماعها.

تسللت إلى عشقه خلسة من وعيه. هي لم تقصد العبث بمقدراته. هو ترك سلاحه منذ أمد بعيد. قُبيل الهدنة مع القدر، حصَّن ثغوره، فصارت عصية على الغزاة. لم يعد يمارس القتال بالسلاح الأبيض، ولم يعد على وفاق مع أحلامه النرجسية. رمى بسهامه إلى موج البحر، فحملها صاغرًا إلى الضفة الأخرى.

الفاسدون

قالت وهي تحاول إخفاء بعض من غضبها:

- تماسك، واهدأ يا حبيبي. لا تجعلهم يستثيرون غضبك. هم يريدون استفزازك ليتلاعبوا بك على أهوائهم. أرجوك، فوّت عليهم فرصة تحقيق مآربهم.

أما أنا، فكل ذرة في جسدي وعقلي ونفسي تغلي غليًا، فأنا أعرف أنهم كاذبون، مدّعون، متلونون، يتسترون بأقنعة الفضيلة الزائفة. رائحتهم عفنة، وأنفاسهم تسمم الهواء. حاقدون على الناجحين والمتفوقين، والثوار. يتمترسون خلف شعارات زائفة. أنا وهي نعرف أنها شعارات زائفة. يستطيعون خداع بعض الناس أحيانًا، لكنهم لن يخدعوا كل الناس، كل الوقت.

اليوم، خرجت له وسيفي في غمده، وحرابي تملأ جعبتي. خرجت له قبل أن تبتسم السماء لشعاع شمس آذار. في تلك اللحظة لا تصلح الأقنعة، فهي تشي بمن خلفها.

قلت له: كفّ يدك عن المدينة، وإلا قطعتها بهذا السيف البتار.

ركع واستجدى، وطلب المغفرة معلنًا التوبة. تركته على الأرض، يجلس على أربعة، ظنًّا مني أن أمره انتهى، وما أن أشرقت شمس الصباح، حتى عاد إلى سابق عهده، عندها قررت قتله.

بندقية

قالت له:

- نعم، أحبك، لكن مهري بندقية.

ابتسم بدون أن ينبس ببنت شفة. خرج مهرولاً إلى بيته. أفرغ ما في جوف خزانته. رفع غطاءً خشبيًّا كان صنعه ليُودِع تحته أسراره وأشياءه ومخططاته النرجسية.

أخرج أساور ذهبية كانت لأمه. توجه من فوره إلى مجمع الحافلات المتوجهة إلى العريش. هناك، قبض عليه رجال الدرك وهو يشتري لعروسه بندقية.

إقلاع

- أنت لا تشاهد الأخبار هذه الأيام!

- لماذا تستغربين ذلك؟

- أستغرب، وأستغرب أكثر أن تُقلع عن قراءة الصحيفة، ولم تقلع عن التدخين!

- وهل ثمَّة وجه للمقارنة بين هذه وتلك؟

- قطعًا.

- قطعًا ماذا؟ نعم أم لا؟

- قطعًا نعم!

- ظننتك ستقولين: قطعًا لا. كنت حينها أتأكد من ذكائك.

الصحيفة اليومية فيها الأخبار نفسها بسيناريوهات مختلفة أحيانًا، وأحيانًا أخرى بالسيناريوهات نفسها، منذ أربع وأربعين سنة، وأتحداك أن تجدي اختلافًا جذريًّا واحدًا! فكلما فتحت الصحيفة، أتركها وقد ارتفع ضغط دمي، وازداد عندي السكري، وساءت نفسيتي، بينما عندما أُشعل سيجارتي، فإنني أشعل غيرها وغيرها وغيرها، حتى تفرغ علبتي، فأشتري علبة أخرى وأنا بكامل سعادتي، ولذلك فإنني أقلعت عن الصحيفة بقرار لا رجعة فيه.

القزم

- أين هو؟

- إنه هناك، يقف بين حرّاسه.

- أنا لا أراه! كلهم متشابهون! فمن هو؟

- ليسوا أولئك! هو محاط بهم.

- انظري، الآن تستطيعين رؤيته.

- آه.. إنه قزم.

- وهل هو عيب أن يكون الإنسان قصيرًا؟ فـ"نابليون" كان قصيرًا، و"هو شي منه" رجل قصير، و"أينشتاين" لم يكن طويلاً، فلا يمكن الحكم على الشخص من خلال شكله الخارجي!

- نعم، لكنه قبيح أيضًا.

- وهل كان الفرزدق أو الجاحظ جميلين؟

- لا أدري! لكنه لا يزال قبيحًا وقصيرًا، ولا أجده مناسبًا.

- ليس للصفات الشكلية وحسب! إنما لعدم الأهلية! فالقائد؛ مخلص، أمين، لا يفرّط، حليم، عطوف، حازم، غير متجبِّر، متواضع، ليّن الجانب، صبور، صاحب رؤية سياسية، مبادر، مقدام، يشاركنا الحلم، يسهر على راحتنا، يغضب لغضبنا، ويفرح لفرحنا، يبتر يد السارق، والفاسد، والظالم، وليس له في الحق لومة لائم، فهل ترى في هذا القزم ما لا أراه؟

- لا، لا أرى ذلك.

- إذًا، فهو- كما قلت- قزم.

لا للانقسام

- أأنت الذي كتب هذا الشعار على الجدار "لا للانقسام"؟

- لا، أنا لم أكتبه!

- لكنك لا تكف عن القول به!

- هذا صحيح، ولِمَ العجب؟

يافا وطيفها

على شاطئ يافا، ليلة الأمس، نزعت حذائي. أنا وطيفها مشينا جنبًا إلى جنب. الأمواج تداعب أقدامنا، خلتها تحمل لي رسائل من الطرف الآخر. أنظر بشغف إلى طيور النورس البيضاء. أغبطها لأن لها جناحين تطير بهما. تحلق في السماء. تتنقل فوق الموج. تحط على صواري السفن الشراعية. تستمتع بالشروق الساحر، وبالغروب الحالم، وأنا باق هنا على شاطئ يافا مع طيفها. أتناول جرعتي من محبتها، أستلقي تحت شجرة برتقال. تساقطت حباتها الناضجة، وانتثرت بعفوية فنان. سقطت الثمار، عندما لم تجد من يقطفها في أوانها. أنا وطيفها جمعنا حبات البرتقال. حملتها إلى القدس. قدمتها هدية لأم محمود. أم محمود تعيش منذ استشهاد ابنها محمود في أحداث النفق لوحدها، لا يزورها إلا طيف ابنها، عندما

تكـون وحـدها، فإنهـا تبكـي بحرقـة، لكنهـا تكـابر أمـام النـاس. تحـاول الظهـور بمظهـر القـوي المتين، إلا أننـا نعرفهـا ونعـرف داخلهـا، ونـدرك حزنها العميق على فـراق ابنهـا الوحيـد وزوجهـا الـذي تـوفي بعـده بـشهر واحد حزنًا عليه.

جلست على طرف سريـري الخشبي. نفـضت الرمـال عـن سروالي وعـن قميصي القطني. تناولت ورقة بيضاء وقلمًا لأكتب لهـا: عزيـزتي، أنـا قـادم إليك، أعدك بأنني لن أغيب عنك بعد اليوم.

وضبت حقيبتي، وانطلقت إليها على عجل لا أنظر خلفي.

"شفتي امي؟"

- شفتي امي؟

- لا...

- بتعرفي اسمها؟

- لا...

- أنا بعرف اسمها... اسمها صامدة...

- انت اسمك زي اسمها؟

- لا ...

هل تعرفين أمي؟

- هل تعرفين أمي؟

- لا.. لا أعرفها.

- أمي بتطلع من البيت كل يوم الصبح، وبتحمل بإيدها شنطة!

- حبيبي، أنا لا أعرف أمك.

- اسمعيني، بكرة الصبح وقفي برة قرب باب المجلس، بتشوفي أمي طالعة من البيت وحاملة بإيدها شنطة!

في اليوم التالي، وقفتُ أنتظرُ في الحارة، لأرى (أم تامر) تخرج من بيتها تحمل بيدها شنطة وعلى وجهها بؤس يُغرقُ الكرة الأرضية.

تسويف

اليوم، في المذياع...

(أبو العناتر): "سوف نزرع الأمل، سوف نبنيَ الجسور، سوف نقرع الطبول، سوف نرمم الحقول، سوف نأتي بالخيول، سوف نُدشن الحصون، سوف نفي بالنذور..."

جعجعة في جعجعة في جعجعة، ولا نرى طحنًا.. بضربة واحدة حطم المذياع.. فاستراح مؤقتًا...!

(القدس، 13/ 9/ 1993)

حمامة السلام

خرجا للصيد يحمل كل منهما بندقيته ويضع حزامًا صفت في خاناته العشرين رصاصات خرطوش من عيار36.

اليوم الجمعة، عطلتهما الأسبوعية. تركا هاتفيهما في البيت بعد أن أغلقاه، تفاديًا لإزعاجات العمل. لبسا ملابسَ بلون التراب، وأحضرا بعض الماء ولم يحضرا معهما زوادة أو أي نوع من الطعام، على أمل أن يأكلا مما يصيدان، لكنهما أحضرا سكينًا وخرطوشًا ونظارتيهما الشمسية، ولم ينسيا قبعتيهما لتفادي أشعة شمس أيار.

صعدا فوق الصخور، ونزلا أودية يلاحقان طيورًا يحل صيدها، لكنها كانت تتوارى خلف جدارٍ عالٍ، فيعودا للبحث في مكان آخر. هما والطيور بين مد وجزر؛ مرة تظهر حمامة، وتتوارى خلف حاجز أو جدار

مرة، إلا أن لاحت لأحدهما حمامة بيضاء ناصعة، استراحت من عناء الطيران فوق سارية علم أزرق ثُبِّت على حافة الجدار، فباغتها رفيقه برصاصتين متتاليتين، فسقطت بين قطع كبيرة من الصخور. هرولا نحوها ليجداها في النزع الأخير، وقد تخضب ريشها بلون الدم القاني.

صرخ رفيقه مؤنبًا:

- ويلك، لقد قتلت حمامة السلام.

حاولا إنقاذها بكل السبل، استخدما طرق الإسعاف الأولي، عملا تنفسًا اصطناعيًّا، استدعيا سيارة إسعاف، لكنها فارقتْ الحياة على معبر قلنديا العسكري.

جدال امرأة

- أين كنت مختفيًا الشهر الماضي؟

- هل افتقدتموني؟!

- لا، ولكن غيابك طال هذه المرة!

- كنت في عمل مهم. حصلت منه على الكثير من المال الذي يساعدنا على إكمال بناء البيت.

- هل تظن بأنني غبية إلى هذه الدرجة كي أصدق ما تقول؟ أنت تتحجج بالعمل كي تختفي. الله وحده يعرف أفعالك.

- إذًا، اسأليه فيخبرك أين كنت.

- هل تستخف بكلامي، وتستهزئ بي؟ أنت لا خير فيك، وستبقى هكذا حتى تموت، مستهترًا، ولا تهتم في بيتك. لا بارك الله لك.

- يا امرأة، أنا تعب وجوعان، وبحاجة إلى النوم أكثر من أي شيء. دعيني أنام قليلاً، وبعدها تكملي جدالك هذا. أرجوك، دعيني أنام.

- أنت دائمًا هكذا، عندما لا تستطيع الإجابة تقول: "دعيني أنام". نامت عليك حيطة.

لم أكد أضع رأسي على وسادتي القطنية، حتى دهمتني تلك الأفكار التي أذهبت النوم من عيني.

كم أنا تعيس! في هذه الحياة، تخيلتها تحمل سياطًا تنزل بها على جسدي التعب، المتهالك من سهر الليالي أمام بسطتي في برد برلين الشديد. الحرارة تحت الصفر بثلاث درجات. وجهي تشقق من البرد القارص، وأناملي ازرقت وأنا أحاول إقناع زبون بشراء علبة من الصدف الساحوري، وقدماي تقلّصتا، وجلدي تيبس، وصارت عظامي هشة، واحمرت عيناي من تجمد الدموع بهما. كنت في شدة الشوق للعودة إلى البيت، بيتي في القدس هناك، في البلدة العتيقة، مصدر الدفء والسكينة، لكن سياطها تنزل على نفسي تمزقها تمزيقًا، فالبرد بكل قسوته أهون ألف مرة من جدالها.

لم أستحم، ولم أنفض غبار السفر عن جلدي، ولم أحصل على الدفء، أو السكينة. تقلّبت على أوجاعي، وخيباتي. فتَّحتُ عينيَّ، فوجدتها أمامي

تحمـل سـاطورًا تهـمّ بقطـع رأسي. أغمـضتُهما مـن جديـد، وارتجفـت كالصوص المذبوح، ولم أجرؤ على فتحهما من جديد.

دَرْس

جاءت أم علي تسحب بيدها كنّتها الجديدة (سهام) زوجة خالد. وصلتا إلى بيتنا قبيل العصر، وهما ترتديان ثياب البيت. كان وجه أم علي محمرًّا، وعيناها متسعتين. الكنّة خائفة خجلى، تمشي بناءً على خطوات حماتها المتثاقلة.

كنت أنا في ساحة البيت، أجلس مستدفئًا بشمس آذار، وأمي في مطبخها، تعد لنا وجبة الغذاء. قالت أم علي لكنّتها دون أن تلقي أية تحية على أمي:

– انظري.. انظري إلى هذه السيدة الضريرة، كيف تقلي البطاطا دون أن تحرقها. تعلّمي منها.. تعلّمي أيتها الجاهلة الحمقاء.

بعدها صارت سهام تأتي إلى بيتنا كل يوم لتتعلم من أمي كيف تقلي البطاطا بدون أن تحرقها.

لماذا أحبها؟

لماذا أحبها عن كل النساء؟

لأن غيابها أحسن من حضورهن.. لأنها أشرفهن منزلة ومقامًا.. لأن شمالها أكثر سخاءً من يمينهن.. لأن قليلها أكثر من كثيرهن، وقليل مائها أغزر من غديرهن، وسريرها أدفأ من أحلامهن، وجدولها أعمق من بحورهن، ويومها أفضل من شهورهن، وشهرها أمد من دهرهن، وأرضها خصب بحب الوطن، فكيف لا أفضلها عن عظمائهن!

ملل

تجتمع كل صباح وبعض المساءات مع جاراتها يدخنّ، ويغتبن أزواجهن، وبيد كل منهن فنجان قهوة. ينصب حديثهن عن الملل الذي يعشنه مع أزواجهن، فقرر الأزواج إعطاءهن حريتهن، فتشبثن بمللهن، ولم يعدن لاجتماعاتهن، وأقلعن عن التدخين.

كلام جميل

"آي هيت يو". قالتها وهي تكفكف بعض عتابها الخجول.

طأطأت رأسها حياءً وهي تقول:

- أنت منذ زمن غير قريب لم تقل لي شيئًا من كلامك الجميل!

نظرت في عينيها محاولاً إيجاد ثغرة أتسلل منها إلى حدائقها الخضراء، فلسعتني ببريقهما. كدت أغيب عن الوعي، لولا أنها أدركت الأمر، ونهضت من مكانها لتطبع قبلة على ثغري المتعري، فأخذتها بين يدي كالأيام الخوالي، أغمضت عينيها، وحلّقت على بساط العشق، وكطائر النورس حطّت على ضفاف الريان، لترتوي بمائه الفرات.

نساء

ربما تعرف الكثير عن النساء.. ربما مارست الحب مع العديد منهن، لكنك لا تعرف شيئًا عن لحظة تستيقظ فيها في الصباح، وبجانبك وجه يسعدك بوجوده.

مرآة

تلفعت بردائها البنفسجي. وقفت شبه مذهولة أمام مرآتها العتيقة. تحسست رأيها القاطع. ربما تطلب منها الوقوف على الحياد ولو لمرة واحدة.

اليوم، هي بحاجة إلى كل دعم ممكن من مرآتها، على الرغم من القطيعة الطويلة معها، فهما على خصام منذ زمن الغياب، منذ غادرها حبيبها على عجل. عندما شاهدها تغازل تلك الصورة القابعة في مرآتها المصقولة، حاول تحطيمها، فلم تتحطم. حاول خدشها بنظرة لمعت كسيف بتّار، فلم تخدش. حاول إطفاء الأنوار عنها، فلم تُحجبِ الرؤيا. حاول أخذ الصورة، فلم يسعها الزمن، وفي نهاية الأمر، آنذاك، ترك المكان، لكنه أخذ معه الجدار، فاضطرت هي لحمل مرآتها بيديها العاريتين. تهتكت

ابتسامتها، واسود سواد عينيها أكثر، وهـي الآن تـستجدي رأيهـا القـاطع للمرة الأخيرة قبل أن يحين موعدها الأسطوري.

العيون

- هل تخبريني بما يجول في ذهنك؟

- لا شيء أستطيع إخبارك به!

- لكنك شاردة الذهن!

- لا شيء، صدقًا لا شيء!

لم أحتمل نظرته. تدحرجت الأفكار من رأسي كالسقوط من قمة حيدر. تُرى، هل لاحظ بفراسته الخارقة مقدار ما علق على جدار قلبي من هيام به؟ هل وشت عيني بي؟ تبًّا للعيون ما أتعسها، فهي لا تحفظ سرًّا.. تبًّا لها!

نقاء

نهض من سريره على عجل. أخذ حمامًا ساخنًا. فتح خزانته وأخرج من جوفها أحسن ثيابه. حلق شعر ذقنه. وضع كل أنواع الطيب المتزاحمة على رف خشبي أمام مرآته الفتية، وقبل أن يخرج من باب شقته، رجع ليطبع نظرة أخيرة ولمسة أخيرة على مظهره.

وصل إليها متأخرًا عن موعده خمس دقائق. وقف بسيارته على مقربة منها. تلفتت بكل الاتجاهات قبل الصعود إلى سيارته الحمراء الفارهة. استمعا إلى موسيقى من الزمن الجميل، حتى استراحت أعصابهما من ضغط اللقاء. أركن السيارة تحت شجرة كينيا معمرة، وانتقل ليجلس قربها في المقعد الخلفي. التهمها بنظراته المتعطشة لما وراء الأفق. تخيلها لقمة سائغة، وأنه يتجول في مساحات جسدها المرمري، يلامس مواطنها

المباحة والعصية. يمرر ناظريه على شفاهها، وجيدها، ونهديها النافرين، وخصرها الدقيق، وساقيها الملفوفتين، لكنه عندما اقترب ليلمس يدها، ابتعدت عنه، ونزلت لتمشي عائدة لا تلوي على شيء. تسحَّبت من بين نظراته هكذا، بسلاسة كجدول ماء عذب، يمر بلا خرير. مشت وعيناها تلامسان السماء الزرقاء. لم تستقل حافلة ولا قاطرة، مشت مزهوة بنفسها، نقيّة.

كآبة

قلت لها:

- إنني تعب.. كئيب.

قالت:

- اذهب وتعطر.

ذهبت وتعطرت. مازلت تعبًا، وزادت كآبتي.

قالت:

- اجلس بقربي.

جلست على كرسي أمام أنوثتها، فقامت من مكانها ببطء أنثوي ساحق، ووضعت يدها اليسرى على كتفي الأيمن، ثم قالت:

- انتظرني.

انتظرتها دقائق مرت بطول الزمن، لتخرج بعدها بعطرها السماوي وهيئتها الملائكية، وعليها ثوب من الشيفون الليلكي بالكاد يغطي ملامح جسدها الأبيض كقطعة مرمر. أشارت إلي بطرفها، فأيقنت أن كآبتي رحلت إلى غير رجعة.

اعتذار

اعتذارك يناسبني، لكن أمرك لم يعد يهمني. اذهبي، فأنا لا أحمل لك ضغينة. ارحلي، فأنا بخير بعيد عنك. لن أصادق بعدك غير أقلامي ودفاتر أيامي، ولن أشاهدك في ذكرياتي، ولن أكتبك أو أقرأك. سأغني للحقول، للورود، لعين الماء في ربوة العشق المباح. أنا بعيد عنك أجمل، فحاولي أن تكوني أجمل.

مرض الشقيقة

أنت، من، أنت أنت! نعم، ألا يوجد لديك علاج لمرض الشقيقة؟ أنا لست طبيبًا! لكنك وجدت علاجًا للحب! ألم تسكب في عينيها علاجًا فوريًّا للحب؟ نعم ولكن! لا تقف هكذا دون حراك. ألا ترى بأنني متوجعة، والألم يكاد يفتك بي؟

نظرت في عينيها، غصت فيهما.. غصت عميقًا.. عميقًا، ثم قلت لها: اذهبي إلى تلك الشجرة، كلي من ثمرها، ونامي في ظلها.

ضحية

– هل نسجت كل هذا الكلام لي أنا؟

– ربما.

– أتحبني إلى هذه الدرجة؟

– قطعًا.

– لكنك لم تقل إن هذا النص لي.

– قلت لك ربما!

سكتت لحظة، ثم عادت لتسأل:

– أتحبني مثلما أحبك؟

– نعم، وربما أكثر.

- لكنك لم تفصح بشكل واضح.. أحبك.. أحبك.. فلماذا تجعلني ضحية لنصوصك؟

- أنت يا حبيبتي لست ضحية لنصوصي، بل أنا ضحية لنصوصي؛ فكلما كتبت نصًّا أتعرض للقذف والجلد والقذع أحيانًا، فهل أكف عن الكتابة؟

وساوس

أأنت المعالج للأمراض المستعصية؟

أنا؟ أنا مجرد إنسان عادي يا سيدتي!

لكنك قدمت علاجًا فوريًّا للحب، وبعد ذلك علاجًا للشقيقة! وأرجو أن تشفيني من وساوسي. القلق يهدني، والتوتر يذهب بعقلي وتركيزي. ابتعد عني أقرب الناس. أغرق في هم لا طائل لي به. أرجوك يا سيدي صف لي علاجًا لوساوسي.

أمسكت بيدها ووضعتها في كفي. ابتسمت، فابتسمت بخجل. تعرَّقت أناملها. لمعت عيناها. أصابتها قشعريرة لطيفة، فتوردت وجنتاها.

هناك يا جميلتي جدول عذب يجري بين تلك السنابل. اذهبي لتغتسلي به كلما لامست يداك وجه القدر.

هيت لك

- مهلاً.. مهلاً.. رويدك أيها الحاذق!

- أتحدثينني أنا؟

- نعم، ومن غيرك؟

- طفت نصف الكرة الأرضية حتى أصل إليك. أتعبتني يا هذا.

- ولماذا كل هذا العناء؟

- كبدي، يا سيدي، متقرح!

- وما دخلي بهذا الأمر؟

- ألست الطبيب المداوي؟

- أنا لست طبيبًا يا سيدتي!

- ولكنك وصفت علاجًا فوريًّا للحب، وعلاجًا للشقيقة، وبعد ذلك علاجًا للقلق والوساوس، وكانت علاجاتك ناجعة!

- من ماذا تعانين يا سيدتي؟

- كبدي، كبدي يحرقني يا سيدي، والوجد لا بدَّ قاتلي، تحملته بما لا تتحمله جبال، وقلبي يخفق، يخفق، يخفق، كأنه عُلِّق على جناح نحلة تستعد لعناق زهرة صيف. شربت أنواع العقاقير كلها، فلم أُشف من دائه يا سيدي. بالله عليك ارأف بحالي، وصف لي الدواء الشافي. صف لي أي علاج من يديك الحانية، ولا تطلب مني الهجر، بل اطلب التداني. صف لي أي طريقة لأجتمع به ولو كان الموت. تحملت يا سيدي عذابات النهار كلها، ولا طاقة عندي لعذاب الليالي.

- على رسلك آنستي. اذهبي بعطرك الليلكي. ابرزي ما عندك، والبسي الحرير الدمسقي، وتجملي، تجملي. قفي أمامه هكذا. وبصوت هامس يكاد لا يتسلل من بين شفتيك، قولي له: "هيت لك".

تصالح

أنا، أيضًا، أحبك. قالت وهي تداعب قلبها بحركة لا إرادية. نعم، أحبك؛ لأول مرة أنا أحبك.

نزل الغيث. هدأت الحقول، وأينعت الأزهار قبل أوانها. لبست الوديان والروابي زيًّا موحدًا بلون الليلك. اتشحتْ السماء بثوب أبيض ناصع. نزلت دمعة من مقلة ملاك، فاستلتْ برحمتها كل عذابات آدم، فتصالح مع الشجرة.

أنوثة

وقفتْ أمامه هكذا، أنثى بكامل تفاصيلها، شعرها الكستنائي الذي يداعب بأطرافه خصرها الرقيق، فتتحفز أزرار صدرها المكتنز بثورته العارمة، وتبتل شفتيها، وتلمعان ببريق كالعسل الجبلي، وتشهر أسيافًا من عينيها العسليتين، اللتين تذيبا بشعاعهما صخور الجرمق. مدت يدها، وبأناملها الطرية، أزاحت شعيرات مشاكسة، تعبث بوجهها الأبيض كتمام قمر آب. وقفت أمامه هكذا.. على قدميها الصغيرتين. وقفت أمامه هكذا.. برائحتها الأسطورية، فلم تُبق في جسده خلية لم تعشقها، هكذا كما هي.

عطرهنّ

دخل مقهاه. جلس إلى طاولته الخشبية المعتادة. صخب، ودخان، وعبق عطر أنثوي ثائر. تناول كتابًا فتح صفحاته، ليتستر على عورات المكان. خفتت الأصوات، فتأججت ثورة العطر تلهب الأنفاس.

ثماني وردات

هنا، قبل أكثر من عام، مر حلوًا ومرًّا. مر ببرده وحرّه، بروحه وظله، برتابته وفوضاه. مر كالسحاب في يوم مقدسي صاف. مر وأنا ما زلت أنا. هنا انتظرتها، ورسمت ملامحها على جدار حلمي. الآن، أنا وحلمي، ووردتها الثماني، وأثيرها المرهف، وذراعها التي عانقت ذراعي، وابتسامتها المشرقة، ومر قهوتي اللذيذ، وطقمي الأبيض، وانطلاق قريحتي، وسماء يعبث به أزيز طائرات قادمة إلى صمتي، وأناملها الطرية، وشفتاي تنطقان بحروفها الوردية.. أنا هنا كما كنت، ولا زلت أحبها.

اشتهاء

غفوت قُبيل زقزقة عصافير الدوري. فتَّحتُ عيني على رائحة الشهوة المستبدة. تبعثرت آهاتي على جسدها الكريستالي. لثمت عطر جلدها فمات ظلي موتًا سريريًّا.

بوح

يا سيدتي.. هل لي أن أبوح بما علق على جدار قلبي في ليل الصفا؟

سئمت انتظار الشمس. استنفرتْ كل أخاديدي المُتعرقة. حالاتٌ من العصيان تقتحم غرائزي، تثور على صبري وتعلقي بسكون الهمس. إنه البوح المؤجل يا حبيبتي..

اسمحي لي أن أردد خلفك نغم الجسد الثائر. أن أرقص على نغم القصائد البربرية. تطرب كل تضاريسك الشوفينية. تحاصرني.. تشدني نحو العشق المباح لنسافر على متن قبلة مخملية يتطاير شررها ليحرق وجد الغياب.

ما عدت أقدر على البعاد..

رحمة

تعانقني كلماتك كل صباح قبل مغادرة العصافير إلى أعشاشها وقد كانت تبحث عن حبات قمح نبتت في ظل همسة دافئة بحجم شمس تشرين.

أنظر إلى قلبك وهو يخفق بالحب، فتسكن في عيني الرحمة.

أميرة

لو تعلمين، يا أميرة السماء، كم أتوق لعناق تفاصيل أحلامك الصغيرة، حتى أخطها على لوحتي البنفسجية، أرسمها بألوان ماسية. كم آنستني ابتساماتك الخجولة يوم تناولت بكفك الصغيرة أصابع يدي، وتركتني أحرس أحلامك من همس الفراشات، زرعت على جبينك قبلة، توسدت ساق زيتونتي فسمعت نبضك يتسلل من حبات زيتون حان قطافها في تشرين.

جواب

أشارت إليّ بطرفها قبل أن تصعد درجات البيت الخمس. ساد الهدوء في المكان. دسّت إليّ رسولها بباقة من ثماني وردات جوري، ومنديل أبيض كتبت عليه تعاتبني لطول غيابي، والله يعلم يا أحبتي ماذا كان جوابي.

سحابة

ما أصعب أن تعشق سحابة دخان عبثت بسيجارتها شفتا عذراء!

المصير المحتوم

نظرت في مرآة، لم تجد نفسها. بحثت في حقيبتها. بحثت عن ذاتها. بحثت من جديد. بحثت عن مرآتها الخاصَّة، فوجدت أحمر الشفاه، لكنها لم تجد مرآتها. هي على يقين من أنها وضعت المرآة وأحمر الشفاه معًا في حقيبتها. بحثت من جديد. أخرجت ما في جوف حقيبتها الجلدية؛ كراكيب كثيرة نثرتها على طاولة حجرية في طرف الحديقة. وأخيرًا وجدتها. أمسكتها بكف يدها اليسرى وأطبقت عليها بأناملها، وبإبهامها الأيمن، مستعينة بسبابتها، فتحت الغطاء، ثم أمسكت أحمر الشفاه، واستعدت لرسم شفاهها المتوهجة، لكنها لم تجد صورتها في المرآة. بحثت عنها. نظرت في كل اتجاه، وكلما نظرت في سطح مرآتها المصقول، ظهرت شجرة زيتون كانت خلفها ولم تظهر هي. تحسست وجه المرآة؛ أملس مصقول بعناية.

تحسست وجهها؛ خشن مليء بالتجاعيد والدمامل. ارتعبت. ثارت. نظرت من جديد فلم تر سوى تلك الشجرة الهرمة. رمت المرآة بكل قوة على الأرضية الصخرية فلم تتكسر. رفعتها عن الأرض. نظرت فيها من جديد، لكنها غيرت مكانها هذه المرة. ابتعدت عن الزيتونة، فشاهدت بوابة كبيرة بحجم السماء يخرج منها نور عظيم، ووهج فاق وهج الشمس بملايين السنين، عندها أدركت مصيرها المحتوم.

حبيبته

وقع مغشيًّا عليه.

ظن أنه هلك.

لم يخطر في باله لحظة سفره بين الموت والوجع، سوى اسمها، فنزلت من عينه دمعة.

الغريبة

السماء زرقاء صافية، تبتسم بفرح غامر. يتمايل الأقحوان بتموج كأنه يتراقص على صدح الطيور. الصخور أكثر لمعانًا في ضوء شمس نيسان.

قلت لها: دعينا نذهب في شطحة إلى الريف في هذا الجو الربيعي الجميل.

سيارتنا جديدة، وهذا مشوارنا الأول فيها. لونها قرمزي. دواليبها كبيرة، ومقاعدها سوداء جلدية. هي ليست سيارة صغيرة، وليست كبيرة، بين بين.

صعدنا إلى سفح الجبل عند قرية الغجر. كنا نحب خبز القرية القمحي الساخن، عندما يلهب أناملنا بأطرافه المحترقة، كما نحب لبن الشنينة.

نزلت ريم لتحضر خبزًا ساخنًا وشنينة. انتظرتها في سيارتنا الجديدة. كنت أسمع موسيقى هادئة وأنظر نحو كل شيء. رأيت فتاة في مقتبل

العمر، صبية كالقمر بهاء، بيضاء، عليها مسحة وردية، شعرها أسود، طويل، يلامس أسفل ردفيها، تلبس فستانًا ورديًّا موشى. تمشي حافية القدمين. تنهمر من عينيها دموع غزيرة. تضع على كتفيها شالاً أبيض نُسج بعناية فائقة. عجبت لحالها. نظرت نحوي بانكسار. أشرت إليها بيدي أن تأتي، فلبت دعوتي بدون تردد. جلست بجانبي، وأغلقت الباب بهدوء.

تذكرت ريم. رأيتها تصعد التلة وبيديها الخبز الساخن والشنينة. قلت لها: اصعدي. عبست في وجهي عندما رأت الفتاة جواري، ونزلت من عينها دمعة. قلت للفتاة: أفسحي لها بجانبك. ففعلت. لم تصعد ريم إلى السيارة. نزلت كي أحضرها، فلم أجدها، كانت قد اختفت خلف البيوت المتناثرة. عدت أدراجي، فرأيت السيارة تتحرك وحدها! ركضت نحوها. فتحت الباب ورفعت الفرامل اليدوية فلم تتوقف. صعدت خلف المقود. ضغطت على الفرامل لكن بدون جدوى. وجهت السيارة نحو جدار حجري، فقذفتني من النافذة أنا والكرسي الذي أجلس عليه. السيارة تسير وحدها ولا شيء يوقفها، والفتاة ما زالت بداخلها. هدمت الجدار، وصعدت فوق الحجارة. رأيت ريم. ذهبت إليها. حضنتها ومسكت يدها، وأخذنا نراقب السيارة من فوق ربوة. خرج الناس نساء

وأطفالاً ورجالاً وشيوخاً لمراقبة المشهد الغريب. لا أحد يستطيع إيقاف السيارة. الفتاة لا تزال في السيارة وحدها، والسيارة تسير بدون حدود تمنعها. أنا وريم نراقب من بعيد، من فوق الربوة. لا نعرف أين السيارة، ولا نعرف ماذا حصل للفتاة الغريبة!

اشترينا سيارة جديدة، بيضاء، لن نأخذ فيها غرباء.

علاج الحب

سكبت في عينيها علاجًا فوريًّا للحب..

فلم يمهله سوى لحظة دفء كي يعشقها.

بؤس

كنت بائسة بدرجة مخيفة. تزوجت رجلاً يكبرني سنًّا. كان أكبر من أبي. كان رحيمًا، عطوفًا، ودودًا، وبعد خمس سنوات، رأيت شابًّا. أحببته من النظرة الأولى. طلب أن أهرب معه. لم أفعل. هزلت. أصبت بـ"الهباتيتس". اصفرّ جلدي.. متُّ.

خبز أمي

سألت مستنفرة:

- ماذا ترغب أن أعمل لك؟

قلتُ:

- أُريدُ خبزًا كخبز أُمي.

ففعلتْ...

الصداقة أجمل

رفيقتُكَ قالتْ... غابتْ، سافرتْ خلف الشمس... عادتْ كما كانتْ...

صديقتُكَ قالتْ... غابتْ غابتْ... سافرتْ خلف الشمس...

عادتْ أجمل، أصغر، أبهى...

حبيبتُكَ قالتْ... غابتْ غابتْ غابتْ وراء الشمس...

عادتْ، أكبر، أجهم، أبشع...

ارحل عني قالتْ... ارحل وراء الشمس... أنا هنا باقية في ظل القمر...

فَرحلتُ.

صدفة

صدفة، وفي غمرة الحياة، التقيا، وعلى هامش التسوق في سوق خان الزيت، تعانقت أيديهما في مصافحة تاريخية، قالتْ له بعد أن تحررت من دهشتها:

- سمعت أنك التقيت بالفتاة التي ستتزوجها، سمعت أن أحلامك تحققتْ.. لا يهم، سأجد إنسانًا مثلك، ولا أتمنى إلا الأفضل لك أيضًا، وستتذكرني دومًا.. أنت تعلم، أن الوقت يمر.. بالأمس، كنا معًا.. لا تنساني، أرجوك! وتذكر ما قلت: "إن الحب أحيانًا يبقى في الداخل إلى الأبد..."

لم تعطه ربع فرصة للكلام، تركته في أحضان دهشته، وغاصت في الازدحام.

في دبي

هنا، في دبي، أتمنى شيئًا واحدًا، وقد تستغربون؛ أتمنى الطيران.. أتمنى أن أكون فراشة بيضاء أو صفراء، أو أي لون ترغبون. أتمنى فقط أن يكون لي جناحان خفيفان رقيقان، يحملاني إلى أعالي المكان. أول يوم لي في دبي، دعاني صديق عرفته عبر الأثير. عرفني من خلال الكلمات. صديقي بكلماته ساعدني على الطيران. أنا أسير هنا أصعد بناظري إلى إطراف ناطحات السحاب، لأُلامس سماء دبي، سماء لا تشبه سماء المدن. لهجات، ولغات، وكلمات ليست كالكلمات. يجتمع الكون في مكان واحد لا يزيد مساحته عن مساحة مدينة، ثقافاته، ولغاته، وألوانه، وأكلاته، وموسيقاه، خليط من كل شيء. هنا في دبي، كل شيء في متناول اليد، داخل جدران إسمنتية، وخارجها، عصفور لم يجد غصنًا يستريح عليه.

تناغم

في دبي، ربما لا ترى عصفورًا على شجرة، أو جدولاً تتسلل مياهه من بين حقول خضراء. ربما تستغرب إذ يعيشون حياتهم داخل قطع من الإسمنت، ويستنشقون هواءً صناعيًّا وأريج زهور صناعية، وألوانهم صناعية، لكن ما يبهرني؛ أخلاقهم، وأمنهم، وأمانتهم، وصدقهم. يتحدثون بصوتهم الطبيعي، ذلك الصوت الهادئ، الرقيق. تنام وباب بيتك مفتوح على مصراعيه، كما هو قلبك مفتوح لاحتضان رقتهم وعذوبة عِشرتهم. وجدت هنا قيمًا غير موجودة بهذا القدر في أي مكان، ألوان من البشر يعيشون تحت سقف واحد، يأكلون، يشربون، يمرحون، يقرؤون، لغاتهم متنوعة ولهجاتهم مختلفة... هذا الذي جمعهم، يستحق الثناء، خليط من الأشياء، المادة والبشر والطبيعة الصحراوية القاسية،

هذا التفوق العمراني والاقتصادي والاجتماعي، كيف له أن يكون لولا العقول المفكرة، والهمم العالية، والانتماء الوطني الذي لا مثيل له...

لا بد لصاحب هذا الفكر وهذه الإرادة أن يفتخر، فهو يستحق كل جوائز الكون دون منازع. له أن يفاخر بمقدار الأمان الذي يوفره للناس. له أن يفاخر بقيمة الرخاء الذي يتمتع به ساكنو هذا المكان. له أن يفاخر بتلك الجسور التي عبر بها كل قارات الكون؛ ليجمع ألوان البشر في لوحة فنية تشرّف كل جدار تعلق عليه، لكي تكون أنموذجًا حيًّا على معنى التسامح والسلام... بوركت هذه البلاد.

(دبي، 28/ 3/ 2012)

ابن بطوطة حاضر في دبي

رحلاته من الأندلس إلى تونس، ومصر، والهند، والصين، ابن بطوطة، والإدريسي، وحلقات الفلك، وحساب النجوم، وعباس بن فرناس ذلك القرطبي المبدع الذي أبهر الغرب باختراعاته، هو أول رجل يفكر بالطيران، فيخترع جناحين يطير بهما في سماء الأندلس، وها هو يحلق من جديد في سماء دبي.

بركة سباع، في ساحة الأندلس، الأسود الحجرية من إبداعات الفن الإسلامي الأندلسي، من قصر الحمراء إلى دبي، السباع تزأر كلما هبت عليها رياح الجنوب. امتزج الماضي الجميل بالحاضر المشرق، بالأبنية ذات الطراز اليمني الرائع، بناء بالحجر الأحمر ذي الطوابق العالية التي تحاكي الأبنية اليمنية القديمة، عمارتان يربطهما جسر دائري يمر من خلاله طريق

للسيارات، ومقابله مجمع ابن بطوطة؛ ذلك المجمع الذي جمع التاريخ بين جنباته، تسير فيه على خطى رحَّالتنا العربي الذي جاب العالم طولاً وعرضًا. تسير في المجمع فيسير التاريخ والحاضر جنبًا إلى جنب، حوانيت ومطاعم ومقاهي موزعة على شكل لوحة فسيفسائية بألوان خلابة. رحلة ابن بطوطة لاستكشاف العالم القديم، ورحلة الزائر لاستكشاف كل ما هو جديد. عناق بين فكرتين. نغم رائع يطرب عليه المرء. يحلق على بساط الريح القادم من عبق الماضي. اللون الأزرق يطغى في قاعة تمثل الحضارة المصرية. قبة كبيرة بحجم قبة الصخرة المشرفة تقريبًا، مزينة بزخارف دقة في الصنع، وروعة في الفن، وفي القاعة المجاورة تدرك أنك في الهند من رائحة التوابل ومن فيل هندي يتوسط القاعة، تجلس عليه دمية بحجم رجل هندي يضع على رأسه عمامة وفي يده اليسرى عصا في طرفها حبل من الليف، وفي يده اليمنى عصا قصيرة ثبت في طرفها مهماز حديدي.

دخلت إلى القاعة المجاورة فإذا بي أمام سفينة شراعية مركونة بعناية وسط قاعة استمدت ألوانها من بلاد الحرير تمثل سفينة الرحالة ابن بطوطة. على بعد أمتار خلف باب زجاجي شفاف، ثمة حديقة مصغرة عن الطبيعة الصينية، جداول ماء وجسور خشبية تصل القنوات المائية وأصوات

خرير المياه وبعض اسماك ذات ألوان فسفورية، ورواد المكان يتوزعون على طاولات من خشب البلوط، ونادلة لا تفارقها ابتسامة، وأنا وسيجارتي وفنجان قهوتي المرّة تناغمنا مع أوركسترا المكان في معزوفة عشق لا تنسى!

(دبي، 31/ 3/ 2012)

خور فكان

(نورمن)، صديقي الإماراتي، لم يعجبه قولي، إنه لا عصفور على شجرة في دبي، فبحث عني، وعندما وجدني قال:

- أنت على خطأ يا صديقي، فهناك طيور وحيوانات في الإمارات.

استغربت قوله! لكنني بنفس الوقت كنت سعيدًا لاستفزازه، فلولا ذلك لما تعرفت إلى هذا الإنسان العظيم، لقد تنقل بي من مكان إلى آخر باحثًا عن حياة بين ثنايا الأمكنة. مرة يقول:

- انظر إلى النوارس البيضاء التي تتنقل هناك بين الصواري والبحر، انظر إلى تلك الغربان على سلك الكهرباء، انظر إلى الحمام يستريح في فيء جدار!

قلت له:

– أنا لم أذكر النوارس أو الغربان، أنا أشتهي أن أرى عصفور دوريّ.

في صباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة، حضر باكرًا. اتصل على هاتفي قائلاً:

– انزل عند باب الفندق، أنا بانتظارك، سوف نذهب لنرى عصافير الدوري.

استقلينا السيارة التي سارت بنا على طول مدينة دبي، من ابن بطوطة حتى قطعنا المدينة إلى الطرف الآخر.

دخلنا الشارقة، ومن هناك ركبنا حافلة بمعية مجموعة من الإعلاميين، عبرنا طريق مليحة، طريق جبلي صخوره بازلتية بركانية لونها أزرق داكن أو أسود، وصلنا عبر طريق جبلي شديد الانحدار إلى الفجيرة، على يميننا ميناء نفطي بير، على جانبي الطريق المؤدي إلى خورفكان، خزانات ضخمة لتخزين النفط القادم من (أبو ظبي) لتصديره في ناقلات نفط عملاقة، ثمة اثنتان منها ترسوان في ميناء المدينة، ميناؤها الأكبر في العالم. على شاطئ المحيط الهندي، بعض الصيادين يسحبون حبال شباكهم من عرض البحر، يستخدمون سيارات الدفع الرباعي لذلك، وقفنا نشاهد عملهم، لكن الشمس الحامية والهواء الساخن منعانا من الوقف لأكثر من دقيقة هرولنا عائدين إلى الحافلة، عجبت من قدرة الصيادين، كيف

يعملون تحت الشمس من ساعات الفجر الأولى لغاية السابعة مساء! ونحن لم نصمد دقيقة واحدة! الشباك ضخمة جدًّا ينزلونها في البحر عند الفجر ويستغرق سحبها ساعات طوال، إنهم رجال أشداء من أصول هندية أو باكستانية، يعملون يدًا بيد، بشرتهم سمراء، قاماتهم بين متوسطة وقصيرة، يتمتعون بمهارات عالية في صيد الأسماك، شاطئ المحيط من الحصى، لكن رمال الصحراء غير بعيدة.

فيما مضى، في زمن ليس بعيدًا، كان الرجال هم الذين يسحبون الحبال بدلاً من سيارة الدفع الرباعي، بالتأكيد عملية الصيد عملية قاسية وعمال الصيد أناس أشداء، كان البحارة الإماراتيون مثلهم مثل العمانيون في هذا البحر القاسي، يغوصون إلى أعماق البحر بحثًا عن اللؤلؤ، وكان طعامهم الوحيد تمر وحليب وسمك. الحياة آنذاك كانت أيضًا قاسية، لكن اللؤلؤ الطبيعي المستخرج بأيد عربية إماراتية، كان الأجمل والأجود.

دكتور نورمن، ينظر في كل اتجاه يبحث عن عصافير الدوري، عصفور واحد يكفي لإثبات وجهة نظره، لا شيء على حافة المحيط غير طيور النورس البيضاء وبعض الغربان.

دخلنا مدينة خورفكان، المدينة شبه بلدة صغيرة، الناس يتقاطرون على حافة الكورنيش، وأصوات قوارب مائية تعلو وتخبو، إنه سباق عالمي

للقوارب السريعة، التحقنا بالحشد لنشاهد السباق، لكننا لم نستطع بلوغ الرؤية بادئ الأمر، فأخذنا نورمن إلى منصة كبار الشخصيات، جلسنا، في الصف الثالث، على مقاعد مرتبة بعناية، وأمامنا كبار رجالات المدينة، وخلفنا أناس عاديون، نساء وأطفال وشباب، عائلات بكاملها أتت لتشجيع أبطال الإمارات في هذا السباق، وكم كانت سعادتهم وسعادتنا عندما فاز في السباق الفريق الإماراتي وقفنا جميعًا نصفق له فقد أحسست بأني أنا شخصيًّا الذي فزت بهذا السباق. وقبل أن نغادر المكان، قال لي محمود:

- انظر يا أبي.. هذا عصفور الدوري يتنقل من فنن إلى فنن وهو يغرد بسعادة.

عندها قلت لنورمن:

- اطمئن يا صديقي، فقد رأيت عصفورًا على شجرة في خور فكان.

(خور فكان، الإمارات، 30/ 3/ 2012)

في الصين

في الصين، وقبل خمسة آلاف سنة، كان ثمة فلاح يزرع حبوب الأرز. كان يحب عمله. يخرج إلى حقله من الصباح الباكر، تصحبه زوجته، والتي كانت آية في الجمال، حتى ذاع صيتها في أرجاء البلاد، ووصل إلى الملك، فأرادها لنفسه.

أرسل جنوده ليلاً إلى بيت الفلاح، فاستيقظ على وقع أقدامهم فوق بيته، وفي ساحته، وخلف النوافذ المغلقة. خرج يستوضح الأمر، فأمسك به الجنود، وقيدوا يديه ورجليه، وأغلقوا فمه.

دخل قائد الجنود إلى مخدع المرأة، وما أن شاهدتهم أمامها حتى فغرت فاهًا، وصرخت بهم قائلة:

– ماذا تفعلون هنا؟ اخرجوا من بيتي، واتركوا زوجي...

لم يستمعوا إلى كلامها. حاولوا جذبها من يدها إلى الخارج، لكنها قفزت إلى منجل زوجها، وقالت لهم مهددة:

- إذا لم تخرجوا، وتطلقوا سراح زوجي، سأقتل نفسي بهذا المنجل.

ووضعت نصل المنجل على رقبتها. تراجع قائد الجند، ومن ورائه الجنود، واحتاروا ماذا يعملون، فإذا رجعوا دون المرأة سيكون مصيرهم الموت، وإذا حاولوا إحضارها بالقوة، فمن الممكن أن تقتل نفسها، وساعتها يكون مصيرهم العقاب بالموت! احتار الجنود بأمرهم. أطلقوا سراح الفلاح، وحاولوا الضغط عليه لإقناع زوجته بتسليم نفسها، والانصياع لأمر الملك، ليأخذوها له، لكنه رفض بكل قوة. بقي الوضع على ما هو عليه حتى صياح الديكة، وبزوغ شعاع الشمس، موعد خروج الفلاحين إلى أراضيهم.

تجمع الفلاحون حول بيت زميلهم، ابن قريتهم، وحضرت النساء أيضًا، لم يبق في القرية إنسان إلا وقد حضر إلى بيت الفلاح، فرغت الحقول من الفلاحين، وبقي الجنود بين البيت والطريق.

مكث الجنود على هذه الحالة يومًا وبعض يوم. عطشوا وجاعوا، لكن أهل القرية لم يقدموا لهم ولو كسرة خبز، ولم يكلموهم، ولم ينظروا إلى وجوههم، بينما الفلاح كان يأكل من مؤونة بيته، ويطعم زوجته بيديه،

فهي ثابتة وبيديها المنجل. أصاب الجنود الملل، والتعب، والجوع، والعطش، والخوف الذي سبب لهم الضعف والهزال.

في اليوم السابع، لم يكن أمام الجنود إلا لململة ما تبقى من قوتهم وغادروا القرية يجرون أذيال الخيبة.

نالت القرية شهرة واسعة بين القرى، وافتخر سكانها بانتمائهم لقريتهم، وتعلم الملك درسًا كبيرًا، بعدم التقليل من شأن أي قرية مهما صغر حجمها، وعاش الفلاح النشيط وزوجته في بيتهما الجميل المتواضع، وخلفوا ابنًا شجاعًا، كريمًا، أصيلاً، جميلاً، صار محور أحاديث الناس في طول البلاد وعرضها.